عبد العزيز في التاريخ

تاريخ وأدب

تأليف

حمد ابراهيم الحقيل

من رجال القضاء في السعودية

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

مكتبة الرياض الحديثة

الطبعة الثانية

بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

الرجل الذى صنع التاريخ



عبد العزيز آل سعود صنع تاريخ الجزيرة
وأسس المملكة السعودية .. ودخل التاريخ
الإنسانى



المؤلف

ما للزمان الاحر ينهنهه يفري اديمي بأنياب واظفار
نشدته حق آدابي فأشعرني بأن ذنبي آدابي واشعاري
ما أصعب الفقر لكني رضيت به لما رأيت الغنى في جانب العـار
صون الفتى وجهه ابقى لهمته والرزق جار على حد ومقدار
قنعت وامتد مالي فالسماء يدي ونجمها درهمي والشمس ديناري

ترجمة المؤلف

نقلا عن الكتـاب الفضي صفحة ٦٣
وجريدة الرياض اليومية الصادرة في ٣٠ - ٣
١٣٨٦ وجريدة الجزيرة الاسبوعية الصادرة
في ١١ / ١ / ١٣٨٨ .

هو الشيخ حمد بن ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم بن سليمان بن محمد الحقيل .

ولد الشيخ بالمجمعة عاصمة سدير عام ١٣٣٨ هـ .

من أسرة عربية تنحدر من وائل ربيعة .

عين أولاً اماماً لقصر الحكومة بالمجمعة عام ١٣٥٣ هـ في سن الطلب ثم عين اماماً ومرشداً ومفتياً للجيش السعودي الذي جهز لمحاربة اليهود في فلسطين عام ١٣٦٧ هـ وقام بواجبه خير قيام ، ثم عين قاضياً للخرمة ، واشتغل قاضياً في محكمة الاحساء ومحكمة الدمام ومحكمة ضرمى ومحكمة المزاحمية وعمل رئيساً لمحكمة الخرج .

ومن هواياته الادب العربي والتاريخ والفقه والاشعار العربية والشعبية

ويحفظ كثيراً من عيونها . وقد عكف على دراسة علوم اللغــة والشريعة والعروض ونظم الشعر . وصفه احد الكتاب في جريدة الرياض اليومية الصادرة ٢٠ / ٣ / ١٣٨٦ هـ ، فقال : متحدث لبق يجذبك حديثه العذب في فنون القول والأدب ، لا تمل مجلسه ، اذا تحدث لك اعطاك الأمثال عل ما يقول من سحر البيان وروائع الشعر والفقه واخبار الأولين ، يضفي على المجلس الذي يجلس فيه من روح الوقار والمرح ، تجلس معه وكأنك تجلس مع مجموعة من العلماء والأدباء والشعراء والحكماء والفقهـاء والفلاسفة ، فهو ينقل لك قول هذا وذاك ، حافظ للأدب العربي وراوية من رواته ، يحفظ الكثير من نوادر العرب واخبارهم ، اذا تحدث اليك ترك لك الرأي فيما يقول ، صريح الحديث واسع الأفق عظيم الاطلاع، تحيط به هالة من الورع والتقوى والهيبة ، يربو عمره على الاربعين عاماً وهو في عمر الشباب حيوية ونشاطاً ، صدر له في عام ١٣٨٤ هـ ، كتاب « زهر الأدب في انساب العرب » وهو كتاب يحوي تاريخ انساب القبائل العربية وبعض الفوائد الأدبية ، وله مؤلفات لا تزال مخطوطة . وقـد اشتهر الشيخ بالعدل في القضاء وسرعة البت في القضايا ، فهو لا يخشى لومة لائم ولا يداهن احداً بل يأخذ بيد الضعيف ويردع الظالم ، وقد حاز الرضا في هذه الناحية وامتلك القلوب بعدله ونشاطه .

مؤلفاته :

١ ــ زهر الادب في انساب راخبار العرب .

٢ ــ كنز الانساب ومجمع الآداب .

٣ – صيد القلم للشوارد والحكم .

٤ – نسيم الصبا في اشعار الادبا .

٥ – شفاء المرام في القضايا والاحكام .

٦ – عبد العزيز في التاريخ .

٧ – مذكرات قاضي .

٨ – اعلام من الجزيرة العربية .

٩ – ديوان شعر حكم .

١٠ – ديوان شعر شعبي نقد وغزل من شعر الصبا وغيرها من المخطوطات للطبع بمعونة الله تعالى .

الحمد لله

وبعد فهذه جوانب من حياة بطل بدأت في تدوينه وانا اعلم ان كتابة التاريخ من أشق الامور واصعبها ، لأن المؤرخ مهما بلغ من الدراية والرواية لا ينجو من التأثر بمحيطه ، وينازعه عاملا السخط والرضى، ومن الصعب ان يلم بسيرة رجـــل كعبد العزيز امتد حكمه وكفاحه خمسين عاماً واكثر ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله والكاتب يكتب ما استطاع وما استحسن وبعده يأتي من يكمل . وكم ترك الاول للاخر ! وقد قطعت على نفسي ان اتجرد من الهوى وان ادرس عملي هذا باخلاص سائلاً من الله العون والتوفيــق ومن القراء المنصفين والجهابدة المثقفين ان يتأملوه بعين الانصاف فإنه ينفق على من جبل على العلم طبعه وعمر بحب الفضل ربعه ، ومن عجنت بالظرافة طينته وسرت باللطافة سيرته ، اما اهل الحقد والجهل والحسد فهم :

من حاسد قد بات يغلي قلبه ... بعـداوتي كالمرجـل الملآن
ان قلت هذي الشمس قال مباهتاً ... الشمس لم تطلع إلى ذا الآن
او قلت هذا البحر قال مكذبا ... هذا السراب يكون في القيعان
هو فضلة في الناس لا علم ولا ... دين ولا تمكين ذي سلطان
فإذا رأى شراً تحرك يبتغي ... ذكراً لـــه كتحرك الثعبان

وقد وشحت كتابي هذا بلمح ملح ودرر وغـُرر وحكم وعبر وفننته لتنبعث الدواعي وينشط القارىء . فرحم الله امرءاً قهر هواه واطاع الانصاف ونواه وعلم ان الكمال لله وانني اكتب عن رجل قد جاور مولاه اذن لا رجاء ولا خوف .

عبد العزيز

هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود . ولد رحمه الله في مدينة الرياض في شهر ذي الحجة الموافق ١٢٩٧ هـ لشهر ديسمبر ١٨٨٠ وتوفي في اليوم الثالث من شهر ربيع الاول في الساعة الثالثه عام ١٣٧٣ الموافق نوفمبر ١٩٥٣ في مدينة الطائف ثم نقل جثمانه إلى الرياض حيث دفن في مقابرها آل سعود . كان رحمه الله مفتول الساعد شديد العصب قوي القلب متناسق الاعضاء أسمر اللون ذا لحية مستديرة يلبس في الصيف اثواباً من الكتان وفي الشتاء قنابر من الجوخ تحت عباءة بنيّة في الغالب ، يحب الطيب ويحمل عصا الشوحط له انامل طويلة وعينان عسليتان تنيران اماكن العطف واللطف ساعة الرضى وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضى ، وله فم كورق الورد في الحالة الاولى وفي الحالة الثانية كالحديد ، هو خفيف الروح حلو النكتة لطيف التهكم ، وحد الجزيرة العربية وجمع أشتاتها وقد وهبه الله بسطة في الجسم وبسطة في العلم فكان في ذلك آية . خاض اكثر من مائة وخمسين معركة ولما مات وجد على جسمه ثلاث واربعون ندبة واثر جراح . كان عبقرياً تتمثل فيه قوى الصحراء كلها وحسب الانسان ان يفكر في مغامرة الرياض التي اتمها بقبضة من الفرسان وآثر عنه انه يقول لمـــا

كنت على شيء من الضعف كنت اكثر ما اكون جراءةً . وعرفت انني اصبحت الاقوى لمـّا شعرت انني اكثر اناءةً وحكمة ، وقال مرة اذا وفق الله اولادي فسوف يتولون مقدرات مائة مليون .

نسبه

ذكر كثير من المؤرخين العرب وجاراهم في ذلك اكثر مؤرخي الغرب الى ان عبد العزيز عنزي من قبيلة عنزة المشهورة بالقوة والكثرة فمن مؤرخي العرب احمد وصفي زكريا في عشائر الشام ، وامين سعيد . ومؤرخ الاحساء ومؤرخ الكويت **العزاوي** في العراق . وفؤاد حمزة في كتابه قلب الجزيرة .

وعمر رضا كحاله في مؤلفه معجم قبائل العرب وكتابنا زهر الادب وكتابنا كنز الانساب ونص على ذلك مؤلفون كثيرون واتفقوا ان آل سعود من اصل عريق ينحدر من ربيعة الفرس اي نبيل أصيل . ومن مؤلفي الغرب بوركارت والمستشرق لاوست ونص امين الريحاني في بعض مؤلفاته ان آل شعلان وآل هذال العنزيين بنو عم عبد العزيز وقال ان عبد العزيز صرح بذلك في مجالسه ، وقال السيد هـ ج بريد جسن ان القبيلة التي ينتمي اليها عبد العزيز هي عنزة ، وفي التقرير الحديث الذي وضعته المخابرات البريطانية : « قال ان جد الملك عبد العزيز من الاحسنه من عنزه نسب عريق نبيل » وفي كتاب دوتي « ديزيرتا » قال : « ومن الأحسنه الأسر الشهيره من امراء نجد الشرقيه ابناء سعود » قال بعض الكتاب ولد عبد العزيز في الرياض عاصمة اجداده فرأى عمومته يتنازعون

الملك ويتحاربون ورأى العدو على باب العاصمة وهو يطمع في الاستيلاء على نجد اجمع ، ورأى اباه يحارب في الوقعة الاخيرة ويستسلم الى الله ثم سمعه وهو جالس الى جنبه في الاحساء يرفض شروط الدولة العلية ، فسدّت امامه الابواب كلها الا الباب الى الصحراء .. فلجأ الى خيام الشعر وهو مثل اصحابها لا يملك فتراً من الارض وليس له غير تلك الثقة الوطيدة العالية ، الثقة بالله التي هي كنز الأعرابي الاكبر. ثم سكن الاب الكويت وصار الصبي شاباً ، فكانت الذكرى الاليمة رفيقة افكاره وسميرة احلامه ، قرأ شيئاً من العلوم هناك وهو يفكر في الملك المفقود، وجلس امام البحر وهو لا يدري الى اين تحمله الاقدار ، ثم نظر الى البادية وهو يهجس بالملك المفقود ، عاشر العلماء والأمراء وجلس ساكتاً متأدباً في مجلس الشيوخ وهو يحلم بالملك المفقود ، فتح الكتاب ثم ألقاه جانباً وهو يرمق السيف بنظرة كلها شوق وأمل ، عاش مجهولاً في الكويت مجهولاً الا في الاسم والنسب ، وفيما يبدو للعين المجردة فقد كان الناس يعرفون ان ذاك الشاب القوي البنية الطويل القامة البراق العينين هو عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل . وما كان كبار القوم فكراً وسياسة وفراسة ليعرفوا اكثر من ذلك، بل كانوا كلهم في ظلال سور الغيب ، كالاطفال جهلوا ما كان يجهله حتى اقرب الناس الى عبد العزيز . حتى ابوه وأمه جهلوا ما كان يجهله التاريخ ، جهلوا ما كان يجهله الشاب نفسه، جهلوا ما لم يكن يعلم به الا الله عز وجل .

جمع عبد العزيز شتات ملك آبائه واجداده في جهاد وكفاح مريرين واستل سيفه ولم يشمه حتى وحّد الجزء الأكبر من الجزيرة العربية بما

فيها من المقدسات الاسلامية ، فقد كانت عسير تحت سلطة آل عايض العدنانيين ، وجازان تحت سلطة الادارسة ، والحجاز تحت حكم الاشراف. وكانت حايل وجبل شمر تحت حكم آل رشيد ، وكانت الاحساء تحت سيطرة الترك ، وكانت القصيم بيد آل بالخيل العنزيين ، وكان وادي السرحان والجوف في يد آل شعلان الرويليين العنزيين ، وكان من آل شعلان النوري بن شعلان زعيم الدولة التي تتألف من مائتي الف تسمة ، وبعضهم بل غالبهم سكن الاقاليم الواقعة بين دمشق وبغداد ، وكان طموحاً الى اقصى درجات الطموح ، فقد كلفه حب الزعامة كثيراً حتى انه اغتال في سبيلها شقيقيه الاثنين ليكون مطلق اليد ، قلت انا لا أعد هذه مكرمة ولا وفاء ، بل قطيعة رحم وجفاء . وكان نوري الشعلان عندما نشبت الحرب والثورة العربية كهلاً في السبعين وأفراد قبيلته معجبون به كل الاعجاب ، ويطيعونه طاعة عمياء .

قال بعض مؤرخي الانكليز : أما سيل الضيوف فلا ينقطع ، فلهذا ترى الخدم لا ينتهون من نحر كبش حتى يبدأوا في ذبح آخر ... حركة في مسلخ صغير ، والأمير الشعلاني يزرع معظم ارضه قمحاً ، والقمح الشعلاني أجود أنواع القمح في سائر أنحاء سوريا ، كما ان الجمال الشعلانية خير الجمال وأحسنها ، والنوري هو والد نواف الشعلان ، وبعد وفاة نواف اختار والده الاقامة في دمشق تاركاً وراء حفيده سلطان ثم رحل سلطان عن الجوف وترك وراءه عبداً له ، وآخر الامر اشتبكت قوات سلطان بقرب قريات الملح مع قوات الاخوان ، وكان النصر حليف الاخوان حيث استولوا على سكاكا والجوف وما جاورها ، قلت الرولة من قبيلة عنزة

جاء ذكرهم في كتابنا « كنز الانساب » وانهم هم بكر بن وائل لأن عنزة الموجودين هم اسم يشمل بكراً وتغلبَ وبني شيبان المتفرعين من وائل بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمي بن جديله بن اسد بن ربيعة بن نزار .
والرولة هم الذين عناهم الشاعر في تلك القصيدة العربية الرائعة التي نسبت لمجد الدين الخطيب ونسبها آخرون لقيصر المعلوف ، والقصيدة بعنوان : « علياء وعصام »

عليا وعصام

روﻻ عرب بيوتهم الخيـام ومنزلهـم حمـاة والشآم
اذا ضاقت بهم ارجاء ارض يطيب بغيرها لهم المقـام
غزاة ينشدون الرزق دوماً على صهوات خيل لا تضام
غرامهم مطاردة الاعـادي وعزهم الأسنـة والسهـام
اذا ركبت رجالهـم لغزو فما في رهطهم بطل كهام
ولا يبقى من الفرسان الا عجايا الربع والولِد الفطام
وكانت من عجايا الربع عليا ومن عجيانه النجبا عصام
لقـد نشأ رعاة للمواشي كما ينشأ من العرب الغلام
هناك على الولا عقدا الايادي وعاقد حبـل قلبهما الغرام
ولما أصبحت عليـا فتاة يليق بها التحجب واللثام
وصار عصام ذا زند قوي يهـز بـه المهنـد والحسام
دعتـه امه يومـاً اليهـا وقالت يا حسامي يا عصام
لقد اصبحت ذا زند شديد به يستأنس الجيش اللهـام
بثأر ابيك خذ من قاتليـه والا عابك العرب الكرام
فصاح وهل ابي قد مات قتلاً وانى يقتـل البطل الهمام!

ألا سمي لي الأعداء حـالاً فمـا للصبر في قلبي مقـام
أبو عليا الغريم بُنيّ فانهض فهذا الدرع درعك والحسام
فصاح وقلبه المضنى خفوق أبو عليـاء امـاه المرام!
نعم فاروِ الاسنة من دماه ولا يمنعك عن شرف عرامُ
والا عشت بين العرب نذلاً رداك الذل والعـار الوسام
فحل عصام مهرته سريعاً وسار وسحب مدمعه سجام
وكان ابو حبيبته وحيـداً على مهر أضر به اللجـام
هناك تبارز الخصمان حتى على رأسيهما عقد القتـام
عصام ارسل الطعنات تترى فتمدت من مبارزه العظـام
وعـاد لأمه جـذلا طروبا فصاحت ما وراءك يا عصام
فجرد سيفه الدامي ضحوكا وقال لها ابشري قضي المرام
وبين هما بضحك اذ بعليـا وقد ادمى مباسمها اللطـام
فقالت يا عصامُ ابي قتيل الا فاثـأر لعليـا يا همـام
فمن لي غير زندك في الرزايا اذا عم البـلا وطما العُرام
فقال لها ابشري علياء فاني لاهل العهد في الدنيا إمـام
فسوف ترين قاتـله قتيـلاً وانصت مـــا اتم له كلام
واغمد سيفه بحشاه حـالاً فخر وللكلوم بــه كلام
ولـما شاهدتـه في هواهـا قتيـلاً يستقي دمه الرغـام
نضت من صدره الهندي حالا وقالت لا تمت قبلي عصام
سأثأر من غريمـك يا حبيبي كذاك العهد يقضى والذمام
واغمدت الحسام بها وقالت على الدنيا ومن فيها السلام

قال بعض الباحثين ان لهذه القصيدة اثراً هاماً ، أولاً لقد رأيت من هذه القصيدة تكذيباً لزعم الفرنجة ان أدبنا العربي خال من الشعر القصصي ، ثانياً ولقد اتاحت لي هذه القصيدة التي ترجمتها للفرنسية من مجلة ليون اوتوفرسيته ، مدى ارتفاعها في العمق والشعور والعاطفة بمقارنتها مع مسرحية السيدة العالمية لكورنه ي ، وزعمت بأن مسرحيته كانت مقتبسة بصورة ممسوخة عن قصة « عليا وعصام » بعد ان اثبت في مقال وتحقيق سابق بأن عظمة دانتي الأدبية في كتابه : جحيم دانتي مسروقة لحدٍ كبير من رسالة الغفران لأبي العلاء ، وكنت اذ ذاك مستمراً في ترجمة بعض روائع رباعيات عمر الخيام وبعض حِكم الامام علي رضي الله عنه والغزالي والجاحظ وغيرهم تحت عنوان « من كنوز الادب الشرقي » ... والمهم كما قال شوقي اننا بحاجة الى ادب ولو بدون اديب ، اكثر من حاجتنا لأديب بدون ادب .

نرجع الى الروله ونقول: ان امراءهم آل شعلان والقعقاع، وهؤلاء العربان في القتال لكل مبارز منهم شعار ينادي به وهو اكتناء معناه الانتخاء ، فالشعلان من عنزة ينتخي احدهم ويقول: خيال العليا رويلي وانا بن نايف راعي العليا رويلي ، واذا قيل راعي العلياء علم البدو انهم الشعلان . وللشعلان نخوة اخرى وهي اخو صيته ، ونخوة بن سمير خيال الملحمة ولد علي واخو عذرا ، ونخوة الطيار اخو ثنية ، ونخوة العمارات اخوة بتلا ، ونخوة آل ملحم خيال البويضى حسني اخو فضه ، ويقولون عند العرض خيال البويضا **صاعدي** ، ونخوة آل مهيد اخوة قطنه ، وفي كتاب المقدم مولران **قال: العوارف** المضادق عليهم هم بن سعدى من شمر ، والطيار من

الولد على عنزة وبن سويط من الضفير .

أما الامير مقحم بن مهيد رئيس قسم الولد علي من الفدعان من عنزة فهو اكبر العوارف. ومن العوارف الخصوصيين في قضايا الدم بن ملحم وقريبه بن زرعة من عنزة ثم بن السخال من الرولة عنزة ، وفي قضايا الخيل والمواشي محمد الصايد من السبعة من عنزة وبن جروان من السبعة .

وفي كتاب « عشائر العراق » ان عوارف عشائر عنزة هم في ضنا بشر بن زرعة من المهيد ومن هيازع من الحبلان ويرى كافة الدعاوى ما عدا حقوق النساء ، وقضايا الخيل ، وبن جلعود من الدهامشة والسحالي من المطارفة ، وبن عبده من الرسالين من السبعة ، وفي ضني مسلم بن الطيار وبن جندل وبن معجل وبن كويكب من الكواكب من عنزة ، وكميان بن دغمي رئيس المهنا ، وموينع رئيس النصير وبشتان من بنية ، وعويض الاخضع رئيس الفرجة والقعقاع من الرولة ، ومؤنس وشاجي من رؤساهم .

وكل الذين مرت اسماؤهم عنزيون ما عدا بن سعدى من شمر وبن سويط من الضفير ، ونحمد الله تعالى على ان وفق عبد العزيز لجمع الكلمة والقضاء على الشقاق والنزاع وجهل الجاهلية وجعل المرجع هو الشريعة المطهرة التي جمعت بين الاسود والاحمر والابيض وغيره ، والبعيد والقريب ، هذه الروح هي التي يخدمها العلم الصحيح والدين الصحيح وإذا تطير البغض منا ، و« الطيرة شرك » لما في البشر من ميل الى الظلم والاستبداد والمكر

والشراسة فليطمئنوا وليتفاءلوا والفأل مأثورة عن سيد البشر ، ان الله قد هيأ في كل جيل افراداً يضحون بمصالحهم لأجل الدين والمبدأ والحقيقة والخير العام ، وفي الحديث : لا تزال طائفة من امتي ... وهؤلاء هم اقطاب الدنيا الذين عليهم يتوقف العمران وبروحهم تسير الانسانية الى الامام .

أهم الوقعات

التي خاضها عبد العزيز

واليك أهم الوقعات وتواريخها التي خاضها عبد العزيز رحمه الله :

١ – وقعة الصريف في ٢٦ ذي القعدة ١٣١٨ في ١٦ فبراير ١٩٠١

٢ – احتلال الرياض في ٥ شوال **١٣١٩**

٣ – فتح عنيزة في ٥ محرم ١٣٢٢ في ٢٣ مارس ١٩٠٤

٤ – وقعة البكيرية في ١ ربيع اول ١٣٢٢

٥ – وقعة الشنانة في ١٨ رجب ١٣٢٢ في ٢٩ ديسمبر ١٩٠٤

٦ – وقعة الطرفية في ٥ شعبان ١٣٢٥ في ١٤ ديسمبر ١٩٠٧

٧ – احتلال بريدة في ٢٠ ربيع ثاني ١٣٢٦ في ٢٣ مايو ١٩٠٨

٨ – وقعة هدية في ١ جمادى ثاني ١٣٢٨ في ١٠ يونيو ١٩١٠

٩ – فتح الاحساء في ٥ جمادى اول ١٣٣١ في ١٣ ابريل ١٩١٢

١٠ – وقعة تربة في ٢٥ شعبان ١٣٣٧ في ٢٥ مايو ١٩١٩

١١ – جراب في ٧ ربيع الاول ١٣٣٣

١٢ – معركة خمض في ٢٨ شعبان ١٣٣٧

١٣ – روضة مهنا وقتل عبد العزيز بن رشيد في ١٨ صفر ١٣٢٤

١٤ – الاستيلاء على عسير في شوال ١٣٣٨ في يوليو ١٩٢١

١٥ – وقعة الجهري في ٢٦ محرم ١٣٣٩ في ١١ اكتوبر ١٩٢٠

١٦ – سقوط حايل في ٢٩ صفر ١٣٤٠ في ٢ نوفمبر ١٩٢١

١٧ – فتح الطائف في ٧ صفر ١٣٤٣ في ٧ سبتمتر ١٩٢٤

١٨ – مكة المكرمة في ٢٨ شعبان ١٣٤٣ في مارس ١٩٢٥

١٩ – المدينة في ١٩ جمادى الاولى ١٣٤٤ في ٢٢ ديسمبر ١٩٢٥

٢٠ – جدة في ٦ جمادى ثاني ١٣٤٤ في ديسمبر ١٩٢٥

٢١ – السبلة تاسع عشر شوال ١٣٤٧ في آذار عام ١٩٢٩

٢٢ – وقعة اليمن وحروبه في ٦ ذي الحجة ١٣٥٢ انتهت بعد الانتصار بمعاهدة صودق عليها في ٧ ربيع الاول ١٣٥٣ .

نجاة من مؤامرة

لما كان عبد العزيز بتاريخ ١٠ ذي الحجة ١٣٥٣ الساعة الواحدة من صباح الجمعة يطوف حول الكعبة الشريفة ، هاجمه ثلاثة من اليمنيين يريدون اغتياله . وقد اهوى احدهم بخنجره ، فوقف نجله حائلاً بين الخنجر والملك فجرح ، وقد صرع المجرمون الثلاثة بالرصاص ، رصاص الحرس منهم عبدالله البرقاوي وخيرالله ، واليك وصف الحادث في قطعة من الملحمة الشعرية :

كمنت عصبة ثلاثة أصلالٍ   فدعني استغفر الاصلالا
لو درى الصِلُ حرمة لمقامٍ   ومليك زاد الجلال جلالا
لمع الخنجر الاثيم وكر الوغد   كالذئب مرقلاً ارقال
صانك القاهر الرحيم أبا تركي   فلم يورث العلى أثكالا
عصبة الغادرين يأبى لسان العرب في الهجوان تسموانذالا
يصم النعت بالنذالة ناساً   لا ذباباً فمن دعاكم رجالا
اعرق الراضعين لؤماً وشراً   واخس الانام عمّاً وخالا
لو جرى ذكركم بمرقم هاجٍ   اوجبت نفسه عليه اغتسالا
هبكم فزتم بقتل مليك   اوَ تمحون بعده الافعالا

●

هذا هو عبد العزيز الذي بسط نفوذه على القسم الاكبر والأهم من الجزيرة العربية وحمى مقدساتها ، وكان اسمه يلقي الرعب والهلع من مسيرة آلاف الاميال في قلوب الاتراك الذين حكموا العرب بيد من حديد ، بل كانوا ينظرون اليهم نظرة مقت وازدراء مما بغضهم البغض كله ، وقد وضع الاتراك أيديهم على بلاد العرب نحواً من اربعمائة عام جمع بعضهم فيها بين الحسنى والاساءة ، وأجبرهم اخيراً احرار العرب ومنهم عبد العزيز الذي طردهم من الاحساء وغيره ، واستسلموا وانسحبوا من بلاد العرب ، وتركوا البلاد وأهلها على الرغم منهم يتمتعون بالحرية والاستقلال وليس من يقدّر الاستقلال كالعربي :

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كاس الحنظل
ماء الحياة بذلةٍ كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

واستف ترب الارض كيلا يرى له ... عليَّ من الطول امرؤ متطول

وان مدت الايدي الى الزاد لم أكن ... بأعجلهم اذ اجشع القوم أعجل

وأهل الجزيرة العربية لم يعترفوا يوماً ما بسيادة اجنبي ، وقد احتفظوا على مرّ السنين بحريتهم ، وأستطيع ان اقول غير مبال إنهم عاشوا طول السنين احراراً كراماً منذ فجر التاريخ ، بل هم يعدّون الاستقلال أغلى ما يملكون. وهم في سبيله يضحون بكل غالٍ ، وكثيراً ما ارسلت الجيوش الجرارة لفتح الجزيرة ولكنها تعود خائبة مدحورة مقهورة ، نعم فشلت الجيوش الاشورية والتركية والفارسية والمادية واليونانية والرومانية ، وحاول السلاطين والخلفاء منذ آلاف السنين توحيد العرب وضم شملهم وصيانة الاماكن المقدسة في الحجاز ففشلوا جميعاً ، واخيراً نجح عبد العزيز فيما فشل الجميع فيه ، وما النصر الا من عند الله إن تنصروا الله

ينصركم ، وكان السلطان عبد الحميد [1] قد تلقى عدة تقارير واخبار مزعجة ومقلقة عن المسمى عبد العزيز الذي يعيش عيشة استقلالية محضة ، ولا يبالي اقل مبالاة بالحياة الهادئة بل يفضل عليها في الاستقلال حياة الصحارى الخشنة متمثلاً :

الموقدون بنجد نار بادية | لا يحضرون وفقد العز في الحضر
اذا همى القطر شبتها عبيدهم | تحت الغمائم للسارين بالقطر
فالحسن يظهر في شيئين رونقه | بيت من الشِعر او بيت من الشَعر

من عادة الملوك والعرب وساداتهم ان يوقدوا النار بأفنيتهم في الليل على نشز من الارض ليكون ذلك ارفع للنار ليهتدي بها الساري ، والقطر بفتح القاف هو المطر ، والقطر آخر البيت عود الالوة الذي يتبخر به ، وقد احسن كل الاحسان في حسن التجنيس بذكر القطر الذي هو المطر ، والقطر الذي هو عود الطيب مع حسن السياقة ، وقال قطرب في مثلثته :

فالقَطر جود كفه والقطر سيل حتفه
والقطر مـاء انفه وخده من ذهب
بالفتح غيث سكبا والكسر صفر ذوبا
والضم عود جُلبا من عدن في المركب

(١) قال بعضهم رغم ان هـذا السلطـان ظالم فهو محب للعلمـاء متظاهر بمناصرة الاسلام .

المؤلف .

وقطرب هو ابو علي محمد بن المستنير بن احمد اللغوي البصري توفي ٢٠٦ هـ والقطر اسم دويبة لا تزال تدب ولا تفتر ، وقد قال سيبويه لقطرب : ما انت الا قطرب ليل ، لانه كان يبكر قبل حضور التلاميذ فغلب عليه هذا اللقب الذي لقبه به شيخه سيبويه .

وعلى ذكر العود نورد هنا قصة طريفة تدل على الذكاء ودقيق الفراسة وذلك ما حكي ان شريك القاضي دخل على المهدي العباسي ، فقال : للخادم هات عوداً للقاضي ، يعني البخور ، فجاء الخادم بعود يضرب به للغناء فوضعه في حجر شريك ، فقال ما هذا ؟ فبادر المهدي فقال : هذا عود اخذه صاحب العسس البارحة فاحببت ان يكون كسره على يديك فدعا له وكسره .

وقد وصفت الرحالة الانكليزية المشهورة مس بل ، التي عملت في دائرة الاستخبارات البريطانية في الشرق الادنى ابّان الحرب العالمية ، ما يشعر المرء عندما ينهض مبكراً في الصباح ويجد نفسه في الصحراء المترامية الاطراف وصفت وصفاً رائعاً ، كملته بهذه العبارة : تمتع ساعة من ساعات الصباح في الصحراء ثم فارق الحياة اذا استطعت .

اقول ان العربي الابي الحر لا يدخل السرور على قلبه الا اذلال المتكبرين المتغطرسين الذين يحاولون ان يظهروا انهم كبار وهم صغار ، فقد راجت سوق المتاجرة بالشهرة ، فكم وكم من شخص يتظاهر بالعفاف ويدفع السفهاء للتطاول على ذوي الفضل من وراء حجاب ، وتلك الفئة من الناس لا تزداد من الله الا بعداً ، ولا ترى من الناس الا ازدراء ومقتاً ما هكذا يا سعد تورد الابل . قلت ان العربي الابي يدافع عن اهله

ووطنه دفاع المستميت الجبار الذي لا يكل ولا يمل ، ولا يحزن مما اصابه في سبيل وطنه . وبالرغم من استعمال المستعمرين الغاصبين كل الاساليب ، الاهانة والقوة الغاشمة والارهاب ، وكان العربي يقدم دمه الطيب الطاهر فداء لفلسطين ، وقد قاوم العربي القوة المسلحة والدبابات المصفحة والمدافع والحراب والطيارات التي كانت تصب الحمم على المحاربين الآمنين المسالمين على السواء ، بل تمكن العربي من انزال طائرات العدو ، وها هم الفدائيون يثبتون كل يوم ان النفس العربية الأبيّة لا بد وأن تنتصر رغم ما قد يطول خمودها . انهم فلسطينيون ، اي ان الدماء العربية الأصيلة تجري في عروقهم هادرة ان سيكون لها النصر ، ان شاء الله .

عدل عبد العزيز

العدل اساس الملك ومنه ما كان يعجب ومنه ما كان يرعب ويخيف، وما عدل عبد العزيز غير عدل عمر بن عبد العزيز . واذا كان العدل اساس الملك فالأمن اول مظهر من مظاهر العدل . كان رحمه الله يقتص من المجرم ولو كان اقرب قريب ، وكثيراً ما كان يتلو الحديث المأثور عن سيد البشر ﷺ لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . وكان استتباب الامن مظهراً من مظاهر العدل والحكم الشديد فقد يسير المسافر عشرة الاميال ومعه الذهب ولا يخشى الا الله عز وجل، واذا حكم الشرع بقصاص فان ساحة الاعدام رهيبة جداً .. في جمع غفير من الناس يحضر الجاني ثم يشتغل السياف. وطريقة السياف سريعة بديعة مدهشة فيها دقة نظر وفيها مهارة : انهم يركعون المذنب على ركبته ثم يرقص امام السياف معاونه ليلهي المجرم عن السيف الآخر المرفوع فوق راسه فيكزه اولاً السياف وكزة شديدة سريعة في رقبته تحت المخيخ فيتحرك الرأس الى الامام فيتقلص عصب الرقبة فيضربها اذ ذاك ضربة واحدة يطيح منها الرأس الى الارض . دقيقة واحدة تبدأ بالرقص وتنتهي بالسيف والنطع فيطير خبرها اسرع من البرق في نواحي البلدان وتتحدث بها الركبان

حياة عبد العزيز تدعو الى الاكبار كما تدعو الى الاقتداء وكيف لا تكبر الارادة القوية في الرجـــل القوي الذي لا يعبأ بالحياة وصعابها! وكيف لا تكبر وهي من المثل العليا في القدرة على الدأب وراء الغايات في غير سآمة ولا فتور ولا ملل، وفي ادراك المرء واجبه نحو ربه ثم نفسه وشعبه ثم في القيام بها على خير مثال ! هي قصة تدعو الى الاكبار كما تدعو الى الاقتداء . امـا عن الاكبار فحسبكم الجهود العظيمة التي بذلهـا صاحبها في بناء نفسه وشق طريقه وسط محيطات مدلهمة واجواء قاتمـة وخصاصة وعوز وفقر وحاجة احتمل فيها من الاعباء كل ثقيل وعسر حتى نال اسماً عظيماً وجاهاً عريضاً ومجداً باذخاً .

ما اقسى يد الزمن ، ولكن ما أعدل ميزان القدر ، تصيب الانسان الفاقة ويتعذب بنيران المتربة والفقر ثم تصهره الحاجة والفاقة (واضح لا شك فيه) بَيْدَ انه يخرج من هذا كله ان كان ممن اتوا العقل الرجيح والنفس الوثابة ، وقد تسلح للجهاد بأسلحة لا تفل وهمة لا تكل ، وجلد لا ينصرم وهمة لا تخور ، دأبه أن يخرج من الاجاج عذوبة ومن العسر يسراً ومن شامس صعبها كل سهل ذلول ، ولا تخور نفسه امام الزوابع والأعاصير والأمواج والجلاميد بل يمسك بقوة شكيمته دفة سفينة الحياة حتى يعبر بحكمة وروية ولباقة كل ذلك بحزم وصلابة وعزم حتى يصل الى بر السلام وشاطيء النجاح ومرسى تحقيق الرغبات والآمال لا سراب خيـال ولا معسول مقال .. هكذا كان عبد العزيز الرجل العبقري :

مساع يضل القول فيهن كله وتهلك في اوصافهن الخواطر
وما كان لولاه لينفع اول اذا لم يزين اول المجد آخر
لعمرك ما الابصار تنفع أهلها اذا لم يكن للمبصرين بصائر
فهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الا بالصقال الجواهر
اناضل عن احساب قومي ربيعة وافخر حتى لا ارى من أفاخر
اذا ذكرت يوماً غطاريف وائل فنحن أعاليها ونحن الجماهر
بكل حسام بين حديه شعلة بكف غلام حشو درعيه خادر
وانهم السادات والغرر التي أطول على خصمي بها واكابر
ففيهم لدين الله عز ومنعة ومنا لدين الله سيف وناصر

الشاب الذي استرد ملك آبائه



ولم يكن معه غير أربعين من الشبان .. فتح بهم
الرياض .. وأقام مملكة السعوديين ..
هذا هو عبد العزيز من قبل خمسين عاماً

حرصه على التعليم ونشره في البلاد

كان رحمه الله قد أمر بفتح دار كبيرة في مدينة الطائف تسمى « دار التوحيد » وتوفرت فيها شروط الراحة والخدمة للتلميذ والأستاذ واختير لهذه الدار نخبة من أجلاء الاساتذة والعلماء الفطاحل من خارج البلاد وداخلها ، وفي نفس الوقت كونت لجنة لاختيار الشباب الذين تتوفر فيهم شروط الكفاءة لدخول الدار ، وكان بعض اولياء التلاميذ من طيبي القلوب وحسني النيات ممن ليس لهم المام بمعرفة عقبى مصالح هذه الدار ، قد موهت عليهم الحقائق وأساؤوا الفهم ، وقد أبرقوا الى جلالته رحمه الله طالبين اعفاء اولادهم من دخول هذه الدار فجاء الجواب بما معناه :

«يا أشباه الرجال ولا رجال انتم تريدون ان يكونوا أولادكم من الثيران والبهائم ، ونحن نريد ان يكونوا علماء أفاضل ينيرون السبيل ويفهمون أمر دينهم ودنياهم . لا سبيل الى الاعفاء » وفعلاً درس التلاميذ مع زملائهم ونجحوا فأصبحوا رجالاً عاملين من علية القوم خدموا أوطانهم بإخلاص ووطنية في شتى الوظائف .

ومن بعض مناقب عبد العزيز رحمه الله ما حدثني به الأخ

الشيخ حمد الجاسر[1] قال لما كنت قاضياً في بلدة ضبا وتوابعها ، وكانت رواتب القضاة في تلك الجهة ضئيلة جداً لا تزيد على ستين ريالاً شهرياً بينما يوجد أناس في تلك الجهات من موظفي المالية وغيرهم اكثر رواتب من القضاة ، أبرقت لجلالته شارحاً وموضحاً تلك الحالة ، فما كان من جلالته رحمه الله بعد ما بلغه الخبر ، الا ان اصدر امره بعد ثلاثة ايام بالابراق للجهة المختصة بان يقرر لكل قاضٍ من قضاة الشمال مرتب لا يقل عن مائة وعشرين ريالاً ، وهو مبلغ في ذلك الوقت له اعتباره .

---

(١) الشيخ حمد الجاسر هو البحاثة الشهير والعالم المطلع، علم من الاعلام المحققين ذو قلم سيال ولد عام ١٣٣٠ هـ في قرية البرود من اقليم السر الواقع غرب الوشم جنوب القصيم ، وهو من قبيلة حرب من بني علي ، تقلب في عدة وظائف عالية من ضمنها القضا وكان صريحاً في احكامه ، وبعد ان انشأ مطابع الرياض اصدر جريدة اليمامة واشتغل بالصحافة والادب والتاريخ وهو اول من اسس مطبعة في مدينة الرياض واول من اسس مجلة شهرية في الرياض ، واول من اصدر جريدة اسبوعية في الرياض، وهو الآن متفرغ لدراسات التاريخ والنشر اصدر حتى الآن ثمانية كتب منها تأليف ومنها تحقيق في تاريخ بلاد العرب ، وتولى اصدار مجلة شهرية تسمى مجلة « العرب » دخلت في سنتها الثالثة . المؤلف

صاحب الجلالة



فيصل بن عبد العزيز آل سعود

تحدث الملك فيصل يوم كان اميراً لمحرر المصور المصرية عام ١٣٦٧! يصف واقع والده وينصفه ، قال في ذلك الحديث: اذكر انه كان في وقعة تدعى وقعة الحريق ، دارت الدائرة اثناء القتال على جيشه وهمّ الجنود بالفرار ، فبرز في مقدمة الصف ممتطياً جواده متقلداً سيفه ونادى :

ايها الاخوان من كان يحب عبد العزيز فليقدم ، ومن كان يؤثر الراحة والعافية فليذهب الى أهله، فوالله لن ابرح هذا المكان حتى ابلغ النصر او أموت. فسرت الحماسة والحمية في نفوس الجند وعادوا فشدوا على اعدائهم وكان لهم الفوز . وحدث ان قبائل العجمان بالاحساء ارادوا ان يستقلوا بأعمالهم ويتصرفوا وحدهم في منطقتهم فأبى ذلك عليهم ، وخرج جلالته اليهم بجيشه ووقعت بينه وبينهم عدة معارك ، وكانت النهاية ان يخسر المعركة الفاصلة ، فقد أطلق عليه رصاصة اصابته في حزامه المملوء بالرصاص حول وسطه ، فانفجرت اربع رصاصات منها وشقت بطنه شقاً تدلت منه أمعاءه فأسرع الى ربطها بحزام آخر وعاد الى ميدان المعركة وكان الجند قد ضعفت عزيمتهم وتزعزعت شجاعتهم لما أصاب قائدهم ، فوقف جلالته وقال لهم :

«أيها الاخوان ، لو انني بقيت وحدي دونكم فلن اتقهقر ، وقد عزمت ان ادفن هنا أو أبلغ النصر ، فمن شاء ان يبقى معي فليعمل مشكوراً ، ومن شاء ان يعود فليرجع الى أهله غير مأسوف عليه .» فأجابه الجند نحن معك يا عبد العزيز حتى الشهادة ، وكان الفوز لهم في النهاية .

هذا بعض ما حدث به نجله جلالة الملك فيصل مما شاهده علية القوم في ذلك اليوم ، مما يدل على ان عبد العزيز لم يجمع شتات هذا الملك العظيم بالتمني والسهولة ، بل نال ذلك بأيام اشابت النواصي :

وما كان ممن ادرك الملك بالمنى ولكن بأيام اشبن النواصيا
كتائب ما انفكت تجوس غمائراً من الارض قد جازت اليها فيافيا
وقاد اليها كل اجرد سابح يؤديه غضباناً ويثنيه راضيا
اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا
فما ينفع الاسد الحياء من الطوى ولا تشقى حتى تكون ضواريا
ترفع عن عون المكارم قدره فما يفعل الفعلات الا عذاريا
يبيد عداوات البغاة بلطفه فان لم تبد منهم أباد الاعاديا

كان في عالية نجد جبل يسمى العلم وكان ملجأ للصوص وسالبي الحجاج وقطاع الطريق ، فقام عبد العزيز بهمته وسداد رأيه ، واختار منهل الخاصرة ان يكون مقر حاميته ، وجعل فيه ما يكفي من القوة والسلاح والرجال ، وقائفي الاثر من بني مرة وبذلك ضاق الخناق على اللصوص ولجأوا الى شعاف الجبال ، فلما ضاق بهم الأمر سلموا واستسلموا وقالوا اين نذهب ، في الجو برقيه وفي الأرض مريه ، وقد اشار الى ذلك احد الشعراء الشعبيين في قصيدة رباعية تعد من عيون الشعر الشعبي ، وهي رائعة ومن محفوظاتي في الصغر :

توا لبدوا تعرف الذله . وتعرف اهل الحكم ودله . ما أحدٍ يا طالهم أشكله
العارف تكفيه الشاره

من اجرم منهم يا ويله . من خوفه ما يمرح ليله . عبد العزيز ينادي له
في البرقيه والطياره

من صنعا الى غزة وافه . كل زان وطاب اعسافه . ما خلا للنفس احسافه
من به دخان أطفي ناره

هجر واظهار العساكر . وحايل واهلها يا ذاكر . وتجـلاية علي وشاكر
والطور امربطن اكباره

هو سيف الله بارضه سله . طاعوا له عدوانه ذله . كل قام يناظر ظله
عـــلم وحلم وقو اعباره

كل طـــاله نية خيره . بنثر في البر وفي الديره . ربيه واريال ونيره
غيث في نجد واقطـــاره

معروفة ما هوب يكمل . يعطى ويخرج ويزمل . عطـــايا تفرح واتجمل
لغاض الجم من أبيـــاره

احدٍ من خوفه يهدي له ، وأحدٍ من حبه يبدي له ، وأحداً بالبده يشكي له
لقلت في نجـــد أمطاره

هو سيد اشيوخ الجزيره ، صفاها ما فيها غيره ، وهو القوه والذخـــيره
لشوش من بـــه انكاره

والى خلف تركي كله . في ايام الضيق اسند دله . وأبو خالد سيفه سله
يضرب به روس الجباره

وقوله ابو خالد هو أخ الملك محمد بن عبد الرحمن الفيصل الذي يعتبر حقاً في الاخوة الابطال الذين ساهموا اسهاماً فعلياً في انشاء هذه المملكة ومن الذين رافقوا الملك في فتح الرياض عام ١٣١٩ ولد ١٢٩٦وتوفي ١٣٦٢

ويعتبر رحمه الله من الكرماء الأجواد ومن الأركان والأطواد ، بيته مأوى الضيوف ورؤساء العشائر ، وهو الذي مـدحه الشاعر الشعبي في قصيدة رباعية تسمى عند الشعراء الشعبيين « العروس » وقد مر بها على

زعماء وأمراء وأخيراً اختارت محمد وانقادت انقياد المحب للمحبوب والذلول للرسن ، ومن القصيدة نورد ما يلي :

يالي طفت بالزين هذا محمد كم جادل نجلا لشوفه توجد
الي الى من ارست الخيل ورد وهزم طوابير الجموع المبنات
ضد الضديد الى دنا من ضديد يروى نهار الكون صافي الحديد
ما كنه الا خالد بن الوليد والا علي بمبارز اهل الطياسات
تقول هيا للشجاع ابو خالد السوق دنه والمطوع وشاهد
والسوق لك يالي علينا مجاهد والكيف طاب وبي نسوق البشارات

ويقول من أخرى :

الى قيل يا اهل الخيل ذا يوم الاحزاب
يتلون أبو خالد مدرب مهيبه
الى اهوى على عمشى السعد كنه اعقاب
طير الوحش الى من هوى من شعيبه

ومن القصيدة الرباعية الاولى سالفة الذكر يقول الشاعر في معركة السبله والدبدبه يصف بعض المواقف ومسير عبد العزيز في الرياض الى القرعا والدبدبه ١٣٤٨ :

والله زينها في ساعه . ضرس صخايه قلاعه . يوم ارخصوا بالطاعه
كل سمح وفك اصرارو

يوم ابو تركي من قصره . ثوره الله واظهر نصره . يبي زابن راعي البصره
لو انه في الشنبل زاره

نوٍّ ظهر يرهق جوره . من الضيرين المذكوره . بامر الله ثم اخو نوره
سد الآفاق بمظهاره

نوٍّ يرهق من يخيله . ذهاب الجافي من سيله . حيث ابو تركي قنديـله
لاشتدّ امرٍ فك اوساره

حين اشمل عرضيه خيم ، على الشوكي حل وديم ، سحب تستسقى واتغيم
لين أمر شرقٍ محداره

ذعـذاع الهيفيـة ساقه . لالآه الا الله براقـه . كن المشاعـل باشناقـه
يا ويل الى يدور اخطاره

من ام ارضمـه الى جوده . ما يفصل برقـه ورعوده . من الايام الموعوده
على من شعبث **باقطاره**

حدر لمطير يرعد نوه . من نجد الاسفل وعلوه الله . يكفي المسلم سوه
والمجرم يبـــلي بأشراره

اول ما امطر وبل اخياله . على بن عشوان وشاله . ما سرت حاله عن ماله
طرشه وابيوته واقبشاره

والأصيقـه دهي مشيره . جتـه التنابـل مغيره . ذبـح وجبت مظاهيره
عقب غاراتـــه واذكاره

واخو جوزاء وبن لامي وابنا خي ضيدان اليامي . امس مقاديم اسلامي
واليـوم عنـد ابـو زماره

وابو تركي لولب عنهم . والنصراني مـا زينهم . من خوفـه تبرا منهم
مكروب **برغي** مسماره

من البصره لمعزبهم . ابو تركي جا طالبهم . طاع التدبير وركبهم
لخو نوره في طياره

عقب المعزة نساهم . طق برجليهم حداهم . على المواتر وداهم
تشيع بنجدٍ واقطاره

واهلهم والى يتليهم اخذ غلة مواشيهم . سربهم ما راجع فيهم
في صعيد طار اغباره

لبن اهواهن في ماواهم . غمران الحبس وخلاهم . بالمصمك وزن خوياهم
حصين بابه واجداره

قول الشاعر بن عشوان هو امير العبيات في مطير والاصيقة من العجمان واخو جوزا هو الامير فيصل الدويش شيخ مشايخ مطير وبن لامي هو شيخ الجبلان في مطير واصله من عنزة وبن اخي ضيدان اليامي هو احد مشايخ العجمان ولا يخفى ان هؤلاء الفرسان المشهورين من قادة العرب ولكن قدرة الله غالبة وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير صدق الله العظيم . كما لا يخفى ان عبد العزيز استعمل الحلم والصبر والأناة ولكن في هذه القضية صار السيف انجع من الحلم .

اذا لم يكن الا الاسنة فركب فما حيلة المضطر الا ركوبها

غفر الله للجميع والله غفور رحيم .

مغامرة

واليك بعض المغامرات التي سماها الكاتب ليلة الظافر بعد ترحيل عساكر الدولة الى المدينة المنورة وإلى بغداد . خرج على عبد العزيز اثنان من رؤساء مطير هما فيصل الدويش ونايف هذال بن بصيص العنزي ثم المطيري وتحالفا واميري بريدة وحايل عليه ولكن اهل بريدة ظلوا اجمالاً موالين . وقد كان لعبد العزيز زوجة يزورها من حين الى حين فلما بلغه خبر خروج الدويش وبن هذال سارع الى القصيم متحققاً متأهباً معاً، وارسل عندما قرب من بريدة الى شلهوب أحد خدامه فيها يخبره بقدومه ذاك النهار وكان قد عسكر في غدير قرب الشقة يدعى المغر فشاعت اشاعة ان بن الرشيد هاجم عليه . هناك خرج عبد العزيز بنفسه مستكشفاً فلم يجد ما شغل البال او يستحق الاهتمام فعاد الى معسكره يتأهب لزيارة المعزبه. فلما كان النهار شد الرحيل ولبس عبد العزيز افخر ما لديه من الثياب فبدت خلال العباءة كأنها من نسيج الفارسية زبون من الكشمير الثمين فوقه رداء من قماش آخر هندي تمتزج الوانه الزاهية بعضها ببعض وفوق الاثنين بين عباءة الوبر والرداء الكرك معطف مزركش بالقصب خرج الظافر يتلألأ ويفوح طيبا كأنه ضفر بالشمس

فسلبها بهاءها وغنم ازهار الارض فبطن بها عباءته، وسار تحت جناح الليل تحف به ستة من الخدم ويماشي منيــة قلبه جيش من الشوق. ولكنـه عندما دنا من بريدة ولم يكن بينه وبـين تلك المنية القصوى غير مسير نصف ساعة التقى برسول من خادمـه شلهوب جـاء يقول ان محمد ابا الخيل امير بريدة قد اقفل القصر وهو متأهب للحرب. وكأن الليل حالف اباالخيل فقصف في تلك الساعة الرعـد ولعلع الـبرق في السماء وهطلت الامطار وهبت الرياح وامسى الظافر حائراً بائراً لا يستطيع الدخول الى بريدة ولا الرجوع الى المعسكر وقد ابعد عنه مسافة ثلاث ساعات. يا لها من ليلة عاصفة ماطرة ظلمتها دامسة ويا لها من خيبة ليلها اشد من تلك العواصف والظلمات. لمز الظافر فرسه وقد قفل راجعاً فسمع بعد قليل كلباً ينبح فساقها نحو الصوت فاذا هناك بيت مـن الشعر، فترجل يبغي ملجأ من المطر الهاطل. وما كان البيت غير خيمة صغيرة طولهـا ستة اذرع وعرضها نصف ذلك وفيها طائفة مـن البشر والمعزى. تكلم عبد العزيز: يا اهل البيت نحن ضيوفكم، فأجابوه ولم يعرفوه: اهلاً ومرحباً ولكن البيت ضيق وذا الليـل يسود الوجه ولم يقبلوا غير واحد مـن الربع فظل الخدم خارج الخيمة ودخل عبد العزيز فرأى هناك عشرة انفار كباراً وصغاراً بينهم عجوز مريضة وشيخ مجنون. فجلس على الرحل قرب الباب وقـد ضم يديه بـين جنبيه وهو يرتعش مـن المطر الذي اخترق ثيابه. وكانت الجديان «جمع جدي» في تلك الحال تشب على كتفيه والماعز يتبول امامه والمطر يصب من سقف الخيمة والمريضة في زاوية تئن والمجنون يصيح والصغار يبكون والكبار السالمون من علل الحياة يتصاخبون. جلس في ذلك الكور في تلك الخيمة وهو يتأمل حالتها وحالته

ويود ان كان ابو الخيل تحت سنابك ذلك الليل او في مجاري السيل او في مخالب العاصفة . تحت ذلك السقف الزارب بين العجوز المريضة والشيخ المجنون هي ليلة الظافر. وعندما اسفر الفجر ركب فرسه وعاد الى بلدة الشقه ليلبس ثيابه وينظفها وقد امست وهي مثقلة بالماء والوحل والاقذار اكره لديه من ابي الخيل. فلما وصل الى قرية الشقة رأى جدران بيوتها تنهار من شدة السيل والامطار فـأم بيت الامـير وكان لا يزال يملـك غرفة ذات سقف وفيها نار مشبوبة فشكر الله على ذلك . بعد ان لبس عبد العزيز ثيابه وازال منها الاوحال ركب يقصد بريدة فلما وصل الى القصر وجده مقفولاً فقرع الباب فسئل من انت فاجاب انا بـن سعود فلم يسع من كانوا داخلاً الا ان يفتحوا . وكان خاتمة القصة لأبي الخيـل مكره **أخوك** لا بطل وكأنني بعبد العزيز يتمثل بقول المتنبي :

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلا لا

ويتمثل بقول صفي الدين الحلي .

لايدرك المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن اراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من ادراكها وطرا
لا بد للشهد من نحـل يمنعه لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
من فاته العز بالاقلام ادركه بالبيض تقدح من اطرافها الشررا

ويقول متمثلاً للمتنبي :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء انمله العشر

للمتنبي

لايدرك المجد الا سيد فطن   لما يشق على السادات فعال
لا وارث جهلت يمناه ما وهبت   ولا كسوب بغير السيف سآل
لولا المشقة ساد الناس كلهموا   الجود يفقر والإقدام قتّال

وكأن لسان حاله به يتمثل بمعنى الابيات

لا تكون الحياة ورداً بلا شوك يجنب الاشواك تحيا الورود
ترزح الدوحة الصليبة في الارياح صرعى ويسلم الاملود
رب عين ولوعة بالدراري   فاتها في احتراسها الاخدود
الحياة الحياة مد وجزر   فارتكاض فهجعة فرقود

* * *

ارث عدنان ان يرمه دخيل   فخطاه على الصعيد مآتم
سورته السماء بالعرب حراساً وبالمصحف المجيد تمائم
لأثيرن في الدغال السبنتى[1]   لاهيجن في الوعور الضراغم
لأقيمنها على الترك حرباً   تنقل الورق بثها والبهائم
ابعث الخرج والقصيم وشقرا   وسديراً بواتراً وعزائم
ما لنجد والترك فانظر ثراها   كيف ينبو عن غمغمات الاعاجم
فرباها للاجنبي دياجير   وللضاد انجم ومباسم
يهجر النوم ثائر وائلي   بين جنبيه للرجاء عوالم
يارياض اصبري فعمّا قليل   ينهد الصبح من رباك القواتم

(١) السبنتى النمر .

وكأني بعبد العزيز يتمثل

يا الهي صن الكرام فـــلا تسمح بسلطـــان باخـــل او حقود
او حسود او راضع في الدنايا والقمامـــات راتـــع مـــولود
فيه حقد على الاكارم والاشراف ارثا من اللئـــام الجدود
يتوالى على السنـــين فيربـــو كنمو الاسحات[٢] عند اليهود
حسداً يرضع الصغار فتنمو بذرة اللوم في حواشي المهود
فاذا سودوا كبـــاراً فويل لـــلدوالي من ثعلـــب نمـــرود
كم عظيم هـــوى فـــولى نداماه وكانـــوا عبـــاده في الصعود
ويكادون من نفـــاق وتدليس يخـــرّون ركعـــاً للسجود
فاذا صوحت جنان وجفت زهرات الآمال في الاملود
كف عن شدوه المزيف صداح وضاقت لهـــاتـــه بالنشيد

* * *

كان عبد العزيز ذا ضمير حي وسرعة خاطر لطيف التهكم ، كان يحضر مجلسه احد الثقلاء المتعجرفين وهو من اسرة معروفة بنجد ، فقال عبد العزيز يصفه يوماً : هو ربع الدنيا ، ثم اردف كلمته (الخالي) اي الربع الخالي من بلاد العرب، الخالي من كل شيء غير الرمال . وعلى ذكر الثقيل والثقلاء نورد هنا هذه الابيات في ثقيل .

وثقيل لو كان في حسناتي وجميـــع الانام في سيئـــاتي

---

(١) جمع سحت

لاستخف الذنوب بل كسر الميزان من ثقله على الكفات

ثقيل براه الله اثقل من برا ففي كل قلب بغضة منه كامنه
مشى فدعا من ثقله الحوت ربه فقال الهي زدت في الخلق ثامنه

وجلس ثقيل بجانب بعضهم فقال : ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون وقال الشاعر :

انت يا هذا ثقيل وثقيــل وثقيـــل
انت في المنظر انسان وفي الميزان فيل

وابلغ ما قرأت في الزائر الثقيل قول الاخطل :

وليس القذى بالعود يسقط في الإنا ولا بذباب نزعه ايسر الامر
ولكن قذاها زائر لا نحبه رمتنا به الغيطان من حيث لا ندري

ملك فعال خير من ملك قوال

كان جمال باشا والياً في بغداد وكان يتظاهر بصداقة ابن سعود ، وسأل ارسال مندوب لحسم الخلاف بينه وبين الشريف ، فأرسل عبد العزيز احمد بن ثنيان من آل سعود . وعندما وصل المندوب وجد الجو قد تغير وسمع كلاماً لا جمال فيه من جمال ولا حكمة . قال جمال مخاطباً المندوب السعودي: ابن سعود غره ان صفح عنه فيضي باشا ، فاذا كان لا يقبل بما تطلبه الحكومة فان في امكاني ان اخترق بلاد نجد من الشمال الى الجنوب بطابورين لا غير . عاد المندوب يحمل هذا الكلام الى عبد العزيز ، فكتب إلى جمال باشا كتابا فيه هذه الكلمة : قلتم انكم تستطيعون بطابورين ان تخترقوا بلاد نجد من الشمال الى الجنوب ونجيبكم بأنا سنقصر لكم الطريق ، وذلك قريب ان شاء الله. واليك من الملحمة الاشارة إلى ذلك بما يلي :

قل لمولاك غره صفح فيضي وأراه بنفسه ساوانا
فتناسى مقامه وهو يدري أننا الارفعون حولاً وشانا
قل له انني بطابور جند أو بضعفيه أبلغ الصمانا
وأدوس الذرى بآكام نجد مبلغاً صهوة الجياد عُمانا

واد كّ الرياض علواً وسفلاً وأبيد الأبراج والأركانا
فأجاب الامـــام نختصر الدرب عسانا عما قليل عسانا
شرف العرب يقتضينا بداراً لا نسوم الباشا يجيء حمانا
سيضل القواد في نجـــدنا الوعر وتخفي قفارنا البعرانا
قد شحذنا لهم سيوفاً حداداً ليلاقوا حتوفهم شجعانا
ايهـــا الغر كل آت قريب سر أنا حيث الفخار يرانا
مولعاً كنت بالدماء ولكن كنت في سفحها دنياً جبانا
لم ير الشرق مثل وجهك وجهاً منذ قاء التاريخ جنكيزخانا
سوريا لن يَبيـدَ ذكرك فيها كلما الشعب ذكر السرطانا
ساحة البرج رغم انفك صارت رفرفاً خلدت به شهدانا
ايهـــا الخـــائن الذليل اشنقاً لأباة ماتوا كراماً فدانا
قد حشدت الدنيا لغزوة مصر وفررتم كما تفر السُمانا
شهدت ترعة السويس انكساراً كان في دك عرشكم ايذانا
أقبل الليث يا جمال وارسى في ضواحي احساءه الفرسانا
ارث اجداده يصيحون هيا من يد الاجنبي طهر قرانا
لا يصدنك الهفوف ولا السور بى الكوت في غد تلقانا
عاف اهل الحساء غطرسة الترك فانقذهم هواهم هوانا
من اعالي الاسوار صاح المنادي سيد العرب فليعش مولانا
رضي الترك بالجلاء فهل وا ق يقيهم في الرحلة الحدثانا
ذلهم يطمع البداوة فيهم الزنابـــير تلسع العريانا

كان رحمه الله كثير النقد لنقص الخلق الاوربي وضعفه لما في نظام حياتهم من كثرة العلاقات الجنسية غير الشريفة والفاحشة العلنية وتعانق

الرجال والنساء علناً في الرقص وغير ذلك من التقاليد والعادات المحرمة شرعاً وعرفاً ولا يبيحهـا الاسلام ، وكان يمقت ذلك ويحض على التمسك بالتعاليم الاسلامية الصحيحة ، وقال عن المرأة انها منحت حقوقا مناسبة لما بها من ضعف وقصور قال الله تعالى : الرجال قوامون على النساء ، وقال مرة : لا مانع من ان تقرأ المرأة القرآن الكريم وآداب الدين ، أما الكتابة بصفة خاصة فهي مما لا يصلح للمرأة ولو انها غير محظورة ولا ممنوعة. وكان رحمه الله يرى ان على الرجال والنساء التمسك بتعـاليم الدين الصحيح وما كان عليه سلف الأمة وصحابتها والصحـابيات ، قلت على ذكر المرأة والفتاة فقد علق بحفظي ابيـــات لبعض الادباء المعاصرين يحسن ايرادها ها هنا لما فيها من التوجيه والارشاد :

ما عهدناك يا حبيبة قلبي تزرعين الوداد في كل صدر
فاحفظي الود في فوآدك لكن لشريك الحياة واصغي لأمر
ثم غذيه بالوفاء وبالعفة والابتعاد عن كل شر
والذئاب التي تحوم حواليك دعيها تهيم في كل قفر
واحذري من فتى يواعدك سراً ويمنيك بالأماني ويغري
فاذا نال ما يروم تولى فتصبحـين بالغلطة عمري
اعرضي عنه واحذريه دواماً وخذي من خداعه الف حذر
واذا ما ارتديت لا سمح الله لباساً بكل عذراء يزري
فهو العـار لو لبست ثياباً فاخرات فالجسم كالمتعري
لم يطهره اي ماء ولا نهـ ـر عظيم يجري ولا اي بحر
فاحذري ان تدنسي الشرف الغا لي فتبكي في كل يوم وشهر
واذا الأهل والقرابة كل هارب منك غاضب متبرئ

لا تساوي في عيون ذويك اي شيء ولا قلامة ظفر
يمقت الناس ما ارتكبت من الاثم جهاراً ولو اتيت بعذر
واحذري من رفيقة السوء درباً واحذري من صديقة ذات مكر
واحذري من رسائل ذات الفا ظ عذاب مزاجها كل مكر
لا تعيري لها قليل اهتمام وارفضيها لا تقرأي اي سطر
واجعلي الناس ينظرون اليك باحترام وبافتخار وقدر
واخفظي الصوت في الكلام وأرضي ابويك بكل عطف وبر

كان عبد العزيز رحمه الله رحب الصدر يتقبل النصح من اهله ويحتمل الانتقاد في ابتسامة حلوة ولكن ليس من قوة في العالم تستطيع ان تزحزحه عن رأي اقتنع به ، وفي بعض المناسبات يتكلم بصوت عال يتدفق الكلام من فيه تدفق الشلالات من اعالي الجبال بل تتدفق الحكم والاشعار والنكت تدفق شلالات « نياغرا » وهو من صميم العرب، والعرب خطباء بالسليقة فما بالك بملوكهم . وقد قالوا : كلام الملوك ملك الكلام .

كان رحمه الله يحمل ناظوراً كبيراً فهو دائماً يراقب من مجلسه حركات الجند والخدم حتى انه لا تمر غيمة في الافق الا رفع اليها الناظور متثبتاً متيقناً . ويقول علينا الكبيرة والصغيرة اذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشئوننا (العبد والامير) عيننا عليهما دايما حتى ننصفهما ونعدل بينهما . كان مرة يراقب قافلة اناخت عند خيمة المؤونة ، حاملة الخضر والماء من الأحساء ، فأمر ان يحضر قيّمها ، فلما حضر سأله عن جمل من الجمال فقال القيم : هو حرون يا طويل العمر . فقال عبد العزيز : اتركه يرعى مع الإبل لا ترجعه معك . من لا ينصف بعيره لا ينصف الناس . مهما قيل في عبد العزيز فهو رجل كبير القلب والنفس

والوجدان ، عربي تجسمت فيه فضايل العرب الى حد يندر في غير الملوك الذين زينت آثارهم بشعرنا وتاريخنا . قال فيه الميجر دكسون ،وهو انكليزي ولد في سوريا وله شغف بالعرب وبلادهم : كان عبد العزيز رجلاً عظيماً وقد يكون نظري فيه نظر من تؤهله الابطال ، هو الحاكم العربي الوحيد الذي تمكن من تأديب البدو وعرف كيف يحكمهم. عنده السيف وله القلب الكبير ، تلك شهادة الاجانب المنزهين عن الاغراض .

قص في بعض مجالسه قصة حرب من حروبه مع آل رشيد ، وختم قصته بقوله : لا أخذناهم في تلك الوقعة ولا كسرونا ، نذكر الذي لنا والذي علينا ، ثم نفخ بعد ذلك في يده وقد رفعها في شكل بوقٍ الى فمه كأنه يقول : ننشرها كالهواء لمن يريدها ولا نخشى الا الله .

وكان رحمه الله في أسفاره أبكر المبكرين وأعجلهم تأهباً للرحيل حتى انه يصلي الفجر في وقته المبكر ، هو نظام يتمشى عليه ، يكفيه من النوم ثلاث ساعات ، وكان فصيح اللسان حليماً ، ولكن على حد قول الشاعر :

اذا قيل رفقاً قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

* * *

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وكان سريع الخاطر لطيف الجواب ، وكان يقدم السياسة في الحديث وتهمه على الخصوص سياسة أوروبا في الشرق الأدنى :

قال مرة : اشبه اوروبا بباب من حديد كبير ولكن لا شيء داخل

الباب . وصفه امين الريحاني فقال : قابلت امراء العرب كلهم فما وجدت فيهم اكبر من هذا الرجل ، لست مجازفاً أو مبالغاً في القول ، فهو حقاً كبير ، كبير في مصافحته وفي ابتسامته وفي نظراته وفي ضربه الأرض بعصاه ، يفصح في أول جلسة عن فكره ولا يخشى احداً من الناس بل يفشي سره وما اشرف السر ، سر رجل يعرف نفسه ويثق بعد الله بنفسه . حنا العرب ، أي نحن العرب . ان الرجل فيه اكبر من السلطان ، وقد ساد قومه ولا شك بالمكارم لا بالالقاب ، عجيب غريب ، جئت بن سعود والقلب فارغ من البغض والحب كما قلت له ، فلا رأي الانكليز ولا رأي الحجاز لا الثناء ولا المطاعن اثرت وها قد ملأته حبا ، متلأه في أول جلسة جلسناها . على أن الحب لا يكون مقرونا ، دائما بالاعجاب ، سترى. قد عاهدته على ان اكلمه بصراحة وحرية وسأكون فيما اكتب كذلك حراً صريحا ولكني احسن شيئا من الفراسة وصرت اركن الى ما تشعر به النفس في المقابلة الأولى فضلاً عما عندي الآن من الملوك للمقابلة والتفضيل. اني سعيد لأني زرت ابن سعود بعد زيارتهم كلهم ، هو حقا مسك الختام . وقال الريحاني :

إن في البلاد العربية اليوم أربعة ملوك كبار وان في نفسية الرعايا رعاياهم نصا على شخصية اولئك الملوك وشرحا على حالة تسود سياستهم في البلاد :

١ — رعية الملك حسين تطيعه وتخافه .

٢ — رعية ابن سعود تطيعه وتحبه .

٣ — رعية الامام يحيى تطيعه دون حب ودون خوف .

٤ – رعية الملك فيصل في العراق لا تحب ولا تخاف ولا تطيع الا مكرهة .

قال عبد العزيز في معرض حديث : لا نعمل عملا ولا نقول كلمة فيها غموض أو ظلمة ولا نطلب غير حقوقنا ، ولا نخـاف غير الله ، أنا بن سعود لا اعرف غير الجادة القوية ولا أقول غير الحق . لست من الغزلين . وكثيراً ما يتمثل بيت بن عمه عمرو بن كلثوم :

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وبيت ابن مقرب :

إذا خانك الادنى الذي انت حزبه
فوا عجبا ان سالمتك الأباعـــد

والعالم الذكي اللبيب المطلع على التاريخ يفهم من هذا البيت درسا في الدسائس والخيانات التي كان عبد العزيز هدفا لها وسيفاً لامعا عليهـا ، فكم قاسى من شدةٍ وكتم من غيظ ، وصبر على اذى وعفا عن مسيء وكم بدا في بعض الأحيان يابسا كالجرح القديم في وجه الجندي وهكذا الملوك :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب
ولا ينال العلا من طبعه الغضب

انها الحقائق مجردة عن الغرض والهوى ، والمرجل في حلمه مثله في كرمه ، جاءه ذات يوم شيخ من شيوخ العشائر الكبيرة التي حاربتــه

واساءت اليه ثم سلمت طائعة وجلس في ضيافة عبد العزيز مدة اخجله فيها بكرمه ولطفه ، فقال لعبد العزيز عند الوداع : انك ساحر ياعبد العزيز جئتك وأنت أبغض الناس الي وهأنا اودعك وانت أحب الناس الي ، لقد سحرتني . صدقني يا عبد العزيز .

خذ مثلاً من لطفه

قال فلبي : كنت انا ورفيقي ندخن ذات ليلة وكنا مثل ضيفين في القصر اذ دخل علينا عبد يعلمنا بقدوم الشيوخ ، وكانت الغلايين وعلب التبغ مبعثرة على الديوان فاخبأناها مسرعين وفتحنا الشبابيك كلها ، وعندما دخل السلطان كان الدخان لا يزال مبعثراً بالغرفة فجلس متجاهلاً ، وكان لطيفا على عادته . ولكن احد العبيد جاء يحمل تواً بالمجمرة وفيها الطيب فقدمها لسموه وادار علينا بها مرارا ثم تركها على السجادة في وسط القاعة تطهيرا للهواء .

العدل اساس الملك وسياجه فان القلاع التي بناها الترك في طريق الاحساء هي اليوم مهجورة وتغير وضعها بل انشأت سكة الحديد الجبارة التي اصبح لها الفضل الكبير في البلاد وهذه السيارات تسير الأميال الطويلة ، كثيرة العدد شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، لا يخشى اصحابها الا الله عز وجل وذلك بحسن نيته وولايته وسياسته التي استمرت والفضل لله وحده حتى الآن .

ان عمله في تحضير البوادي وتأسيس الهجر خطوة كبرى في تمدنهم وتعلمهم ، وعلى أثر ذلك فتحت المدارس ونقلتهم من الجهل الى العلم ، من الظلمات

العقلية الى النور .

إن المدارس التي فتحها والبوادي التي عمل على تحضيرهـا كملت عمل السيف ومهدت السبيل إلى الوحدة العربية الاسلامية الشاملة .

ان في اخواننا من البوادي روح القتال بل فوق ذلك الشجاعـة ، شجاعة لا تعرف الخوف ولا تهاب الموت ، وقد تقلدوا يوم تحضـيرهم سيفين : سيف الدين ، وسيف الثبات ، قال عنهم عبد العزيز : يجيئوننـا في السلم فنعطيهم كل ما يحتاجون من كسوة ورزق ، قال : ولكنهم في أيام الحرب لا يطلبون شيئاً منا . يقول بعضهم : كنا نمشي بدون ماء ولا زاد ، بل يبادر الواحد منا الى الحرب ببندقية ويركب ذلوله متكلاً على الله معتمداً عليه ، ثم يكون النصر حليفـه ، كان الاخوان ومنهم خالد بن لوي الشريف ، وسلطان بن حميد ، وفيصل الدويش واخوانهم كثيراً رسل الهول ورسل الموت في كل مكان وكانت هوستهم في الحرب هذا البيت :

هبت هبوب الجنه   اين انت يا باغيها

فلا الحجاز ينساهم ، ولا الكويت يذكرهم بالخير ، ولا العراق يحسن بهم الظن ، ولا عمان سعد بهم ، ولا الجزيرة تكبر في ساحة الوغى سواهم. الاخوان في أيامهم زرعوا الهول في كل مكان ، هم يحاربون مستبسلين مستشهدين ، فهم حقا في تلك الأيام أبطال الموحدين ، وما كانت البطولة بغير الايمان الحي في البيئات في الجهاد ، وكان عبد العزيز أمامهم في كل شيء ، فهو يعرف الشجاع منهم والتقي والصبور والعاقل وعكسه ، ويحسن سياسة الجميع. ولما اطلق بعض الاخوان من السجن رغم الذي حصل

منهم وهو خروج عن الطاعة في قضية الجوف . قال عبد العزيز مخاطبا لهم :
لا تظنوا يا اخوان انكم ساعدتمونا وأننا نحتاج اليكم ، قيمتكم يا اخوان
في طاعة الله ثم طاعتنا . فاذا تجاوزت ذلك كنت من المغضوب عليهم .
(اي بالله) لا تنسوا انه ما من رجل منكم الا وذبحنا اباه واخاه وبن
عمه وما ملكناكم الا بالسيف . حقكم بالشرع من هـــذا الخشم ، اي
الانف ، وضرب السبابة بانفه ، قال وحقي آخذه منكم دايما باذن الله
ومعونته .

اسماء الهجر

واليك بعض اسماء الهجر التي كان عبد العزيز السبب في انشائها :

١ – الأرطاوية اسست عام ١٣٣٠

٢ – الغطغط في ضواحي البطين ، بطين ضرما .

٣ – فريشان

٤ – الفروث

٥ – مليح

٦ – ساجر

٧ – العمار

٨ – الاثله

٩ – الارطاوي

١٠ – ضرية

١١ – مسكه

١٢ — قرية العليا

١٣ — قرية السفلى

١٤ — الهيائم بالخرج

١٥ — الجفير

١٦ — الحصاة

١٧ — الرين الأعلى

١٨ — الرين الأسفل

١٩ — مشيرفه

٢٠ — الوسيطا

٢١ — الداهنة

٢٢ — الصوح

٢٣ — عرجا

٢٤ — عسيلة

٢٥ — نفى

٢٦ — عروى

٢٧ — الرويضة

٢٨ — الصرار

٢٩ — جنيذ

٣٠ — الصحاف

٣١ — عريعره

٣٢ — دخنه

٣٣ — الشبيكيه

٣٤ — الدليميه

٣٥ — القرين

٣٦ — السامنه

٣٧ — حنيظل

٣٨ — البرود

٣٩ — قبه

٤٠ — للقواره

٤١ — تاج

٤٢ — الحسي

٤٣ — الحناة

٤٤ — الشباك

٤٥ — الاجفر

٤٦ — بنوان

٤٧ — الجفر

٤٨ — بيضانثيل

٤٩ – ام القلبان

٥٠ – الاخضر .

٥١ – البدع .

٥٢ – الضبيعة في ضواحي الخرج وكانت قديماً لضبيعة بكر بن وايل والآن يسكنها طائفة من سبيع .

قصة تمثل الحلم والكرم

واليك قصة تمثل الحلم والكرم في شخصية عبد العزيز . عندما كانت الحرب قائمة بينه وبين عمه آل سعود[1] ، ارسل سلمان[*] بن محمد آل سعود وفداً من قبله الى قطر وعُمان ومسقط والبحرين ، ليستنجد شيوخها على عبد العزيز ، وكان العجمان يومئذ حلفاء ، وكان أحد رجال الوفد من هذه القبيلة فسافروا الى عُمان ومنها اجتازوا الخليج الى لنجا على الشاطىء العجمي وهم يقصدون سلطان الحمادى حاكم تلك الناحية ، فأعطاهم لذلك مائة بندقية وأربعة آلاف روبيه ، ثم جاؤوا البحرين فأعطاهم الشيخ عيسى الخليفة مئة بندقية واثني عشر الف روبيه ، وساعدهم آل زايد بعمان بأكثر من ذلك ...

عاد رجال الوفد بينما هم في الطريق الى العقير يحملون ما معهم من الاسلحة والمال لمحاربة عبد العزيز . وعلم بهم أمير القطيف اذ ذاك عبدالرحمن

---

(١) هم آل سعود بن فيصل لاحمد الله وهم خلف لخير سلف لا زالوا متمسكين بطريقة آبائهم واجدادهم في الشهامة ومكارم الاخلاق . المؤلف ١

ابن سويلم ، فارسل عساكر في مراكب شراعية لمطاردة اولئك بين البحرين والعقير فاحاطوا بهم ، وألقوا القبض على ثلاثة منهم .

تحدث أحد الثلاثة قال : ارسلنا مقيدين الى عبد العزيز ، فلما وصلنا اليه امر بفك قيودنا وباخذنا الى المضيف ، وبعد ثلاثة أيام أحضرنا الى المجلس وكل واحد منا لا يرى نصيبه الا الموت ، فخاطبنا قائلاً : يا أولادي نحن لا نقهر احداً ولا نجبره على اتباعنا ، فمن كان منكم يهوى الذهاب الى اميره ورئيسه فعليه به ، ومن كان يريد الجلوس لدينا فعلى الرحب والسعة . فقال واحد منهم [1] : يا طويل العمر انا أفضل نارك على جنة سلمان ، فامر له بكسوة وبندقية واثبات اسمه في الديوان . وقال الاثنان [2] : نرغب الذهاب الى سلمان نعتز معه او نقتل واياه ، فامر لكل منهما بكسوة وذلول وشيء من المال وأطلق سراحهما وأذن لهما بالذهاب . وأخيرا صار الحلم بالاقارب انجع من السيف .

ان التاريخ اثبت لعبد العزيز سيرته الحسنة حيث لم تقتصر عبقريته على النواحي الحربية ، بل استطاع ان يشمل تاريخه حتى قضايا السياسة بصورة خاصة ، فقد عمل على حل مشاكل الحدود بينه وبين جيرانه في اليمن والعراق والكويت والاردن ، وأسس العلاقات الحسنة ، وعقد المعاهدات مع سائر الدول الاسلامية والعربية والاجنبية ، وساهم في

---

(١) هو احفيظ بن فهد العجمي من آل حبيش العجمان.

(٢) هما محسن العليوي من آل حبيش وسعد بن صاهود من آل حبيش العجمان والثلاثة المذكورون كلهم انتقلوا الى رحمة الله .

منظمة الامم المتحدة وتاسيس جامعة الدول العربية . وان التاريخ سجل له باحرف من نور مواقفه المشرفة ومساعداته السياسية والمالية والعسكرية وعلى الاخص موقفه الاغرّ من قضية فسلطين السلبية حين رفض كل اغراءٍ وعرضٍ للتساهل والتغاضي عن انشاء دولة اسرائيلية ، وقام بواجبه خير قيام في تنظيم موازنة الدولة وازدهار البلاد في النواحي التعليمية والعمران والطرق ومد سكة الحديد ، وأمّن العناية التامة بتسهيل طرق الحجاج وتركيز الامن والغاء الضرائب والرسوم التي كانت تتقاضاها الحكومات من الحجاج كما اهتم بعمارة وتوسيع الحرمين الشريفين فتم ذلك على خير ما يرام .

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

* * *

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته   ما قاته وفضول العيش اشغال

حقا لقد تطورت المملكة في عهده في كل نواحي الحياة بأساليب حكيمة رغم ما تكبده من مشاق وما واجه من عقبات كان المذلل لها . تلك انسانية عبد العزيز كما يقال تتجلى في سخاء معن بن زايدة الوايلي وشجاعة كليب ومهلهل وعمر بن كلثوم وذكاء أياس ، ذكاء فطري يلمح في دورة خاطرٍ ما يستعصي على اعلام العلماء في ايام ، وعدل هو استواء الشمس في الظهيرة اذ تتخذ مكانا نصفا ، وحلم احنفي ينفذ البحر قبل نفاده ، ووفاء للذين ألقوه في المنزل الخشن كأعلى ما يكون الوفاء عاملاً بمعنى البيت العربي :

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومضافا إلى ذلك كله تقوى يصح فيها قول الله عز وجل : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » صفاة عبد العزيز الجميلة لا ينكر فوحها الا مزكوم بالهوى او متطبع بطبع الجعلان فليس اقتل لها من عبق الاريج :

اذا خلعت على عرض له حللا   وجدتها منه في أبهى من الحلل
بذي الغباوة من انشادها ضرر   كما تضر رياح الورد بالجعل

لا يتصور القارىء الكريم اني اكيل المدح جزافا في رجل بارز بين العظماء من الرجال في الحاضر والماضي ، فهذه هي الحقيقة والواقع ، انني اكتب ما اكتب والرجل قد جاور ربه ، اذن لا رجاة ولا خوف .

وما شكرت لأن المال فرّحني   سيان عندي اكثار واقلال
لكن رأيت قبيحا ان يشاد لنا   وانـنـا بمقـال الحق بخـال

من الملحمة الرياضية

قبس في الدجى

ولادة عبد العزيز

قبل توديع مجده وانهيـــاره وانطفاء الأخـــير من أنواره
شام عبد الرحمن في القصر ضوءاً لاح خلف الكثيف من اسفاره
حسبوه بقيـة البـــدر حين الضوء في المحق أو قبيل سراره
قلمـــا يلمح الرجـــاء مريض كلما حوله نذير احتضـــاره
ما درى انه الوليد الذي يفـــتر ثغر الزمان عن اخبـاره
ووليد جـــاء الزمان شهابا فأغار البـــدور من أقمـــاره
ذوّبت مقلة الجزيرة جفنيهـــا وأفنت سوادهـــا في انتظاره
هان أولادهـــا فلم يبق الا واحد ترتجي منيـــع جواره
قيّد العرب في الجزيرة جهل وانقسام وعزلـــة ومـــكاره
همل كالقطيـــع اذ كل رأسٍ لســـواه من الرعيـــة كاره
كل فخـــذٍ قبيـلة كل بطـــن دولة في انعـــزاله ونفـــاره
من لهـــا مقلة الجزيرة يأسوهـــا فيشفي عمـــاءهـــا بانتصـــاره

ينعش الهند والخليج وبحر الروم والفرس من شذا أزهاره
ويؤاخي بين الحجاز ونجد ويعيد الحسا الى أمصاره
فتعود الجنان مرجاً فساحاً ويهل المرجان من جلّناره
ويوآتي نجران بعد جموح وعسير يكون في أقطاره
كعبة الضاد قصره وقلوب العرب عقد منظم في اطاره
عمر هذا الوليد امسٍ عريقٍ وغد لا تغيب شمس نهاره
ليس عمر الانسان رقماً ولكن هو عمر الخلود في آثاره

قلنا ان عبد العزيز ساهم بكل جميل وبالاخص في قضية فلسطين حين رفض كل اغراءٍ ، ومن الملحمة الغراء نورد أبياتاً كأنما نظمها الشاعر من لسانه :

ما لصهيون في فلسطين حق دنس المنزلون والنزلاء
أذهلوا عن رضيعها كل أم واستبدت بالمترفات الإماء
اقفرت من مطارف العز دار وخوت سدة وضيم فناء
الف القدس علِيّةَ الشرق أهلا فاذا فيه شُرَّد ادنياء
وذياب أتته من كل فج طالما جمّع الذياب العواء
ما لصهيون في النبيين عرق فالنبيون منهم أبرياء
فلقد أنكر الجميع نفوساً ذنبها البغي والخنا والرباء
ربهم فلسهم فلو لاح فلس بحذاءٍ لساد فيهم حذاء
غاية العيش عندهم درهم بخس وخمر وقينة جيداء
ويغر البنان ملمس رقطاء وبالناب تعرف الرقطاء
للجواسيس عند بلفور عهد ساد فيه الجناة والشركاء

* * *

شركاء الذياب كيف غدرتم فنصرتم صهيون وهي الوباء
بعتم العرب بالأخسّين قدراً فلقد سئتموا نفوساً وساءوا
كل بيت من شركم فيه صخر كل انثى من غدركم خنساء
للبغايا في الارجوان اختيال والعذارى يضيمهن العراء
يتهادين والعيون حيارى والأسارير تربة صفراء
قد بعثتم في العرب جذوة حقد تكتسيها الاصباح والامساء
بفم الشيخ لعنة حين يمضي ومع الطفل تولد البغضاء
خالد بن الوليد إرثك نهب ورثته الرعاع واللقطاء
في فلسطين للعروبة صك دونته سيوفها الغراء
امد المكر ليلة وضحاها فاذا ادبرت يبين الخفاء
ان قبح الذميمة الوجه يبدو صارخاً عندما يزول الطلاء
امة العرب والنداء ابتهال ليس يغني عن القتيل الرثاء
حسبكم من ضروب هزء الليالي أن عليكم تُنصّب الأوصياء
قصر في عيونهم او رقيق جاز فيه التنكيل والافناء
واذا بيع بالدنانير عدل فالجناة القضاة والفقهاء
بدعة الجور ان يفوز دخيل ومن البيت يطرد الابناء
يهتك الستر عن بياض الغواني وعلى الطهر تسدل الفحشاء

انتصار حرّر اليمن

انتصار عبد العزيز في اليمن ، حرر اليمن من نفوذ اجنبي وبخاصة النفوذ الايطالي ، وقد أدرك الامام يحيى رحمه الله خطر الموقف وعبث الخصومة والمقاومة ، فأقر الملك عبد العزيز على مطالبه التي اشترطها منذ البداية لوقف القتال ، وانتهت القضية الى معاهدة الطائف عام ١٣٥٣ ، وقد أقلق انتصار عبد العزيز مضاجع اوروبا ، فرست بوارج انكليزية وفرنسية وايطالية في ميناء الحديدة ، فأنفذ اليهم الملك عبد العزيز مذكرة مآلها انه يأخذ على عهدته سلامة رعاياهم لئلا يتخذوها ذريعة للاحتلال ، وكان الخوف من الايطاليين أكثر ، ومن الملحمة نقتبس أبياتاً :

قد اتاك السعود نازل ان اسطعت وأبعد عن قومك الآجالا
ونمور هم الزيود ولكن لا تصيد النمورة الأشبالا
نصر عبد العزيز أقلق أوروبا فرامت لظفرها ادخالا
انما يدخل الوباء على الجسم متى دقت الجسوم هزالا
يلج الافعوان ثقب جدارٍ أورثته الريح العصوف اختلالا
أقبلت دارعانها تتهادى في اختيال العروس تاهت دلالا
في بساطٍ من زرقة واخضرارٍ تحت ضافي دروعها يتلالا

حارسات ٍ وما اردن سلاماً حايدات وما كرهن الصيالا
حائمات حول الحديدة كالعقبان إمّا رأت دماً على الأرض سالا
فوعدن اللهى بري قريب وتقاسمن في المنام الرخالا
يتوسلن في الحماية والرعيـــا ويبدعن حجة ومقالا
انا أَولى منكم بحفظ رعاياكم فسيفي عنهم يرد الوبالا
هكذا أنفذ المليك اليهم مثلما الشر يبلغ استفحالا
قبل ان تنشب المخالب في الغاب وتأوي البراثن الادغالا
خمدت سورة العتو فيحيى خاب فألاً فطلّق الآمالا
عاد ذاك التهديد لابن سعود بعدما روع الامام ابتهالا
ملك النجد والحجاز امـانا صاح يحيى : غمرتنا اذلالا
حسبنا من سيوفكم ما لقينا هب لنا هذه البلاد حلالا
مثل عبد العزيز من عف عن قطرٍ وقد كان يستطيع احتلالا
فوزه بالبلاد بعد بلاء دون حلم الطليان بالقطر حالا
فكأن المليك وهو الجلي ردها او اتاها استقلالا
من ترى كان صدّه لو بغاها رمياً او احالها اطلالا
أو ينسى من بعدها يمنيّ فضل عبد العزيز ما العمر طالا

قصص وأشعار ظريفة

كان رحمه الله مع ما أوتي من شجاعة وبطولات يكره سفك الدماء ولا يقتل الاسرى ، بل يفكهم ، وكان كثيراً ما يتمثل بالحلم والشعر في ذلك . وقد سمعته ، وكان يلقي درساً على المجاهدين الذين ساهموا في قضية فلسطين ، وقد امر علي ان اكون مرشداً واماماً لهم ، وذلك عام ١٣٦٧ والمجاهدون من اخواننا البوادي يزيد عددهم ذلك اليوم على ثلاثين الفاً وفي معرض توجيهه وارشاده يتمثل :

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم
اذا اثقل الاعناق حمـــل المغارم

وكان يعمل على حد قول الشاعر

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من كف طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فـذاك الفارس البطـل

سجايا كثيرة فطر عليها عبد العزيز ، الشجاعة النادرة والحلم البعيـد المدى ، والقلب المملوء بالعلم ، وقوة اللسان ، فاذا خطب ملك القلوب

وقاد النفوس العصية ، يفرح بما يفرح به شعبه ، ويتألم مما يتألم منـه ، كان يجلس أحد أطفال أولاده أو أحفاده في حجره يداعبه ويلاطفه ، لا غطرسة ولا تكبر ، وهو مع تلك المداعبة والملاطفة ، لا ينشغل عن حديثه ، ولا يقطع مجرى خطبته ، وقد وفقه الله الى بر والديه والحض على ذلك حضاً يتجلى معه معنى الآية : « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً » وحدث من رآه بمكة وقد أراد والده الإمام عبد الرحمن أن يركب ، فوطأ له من كتفه حتى وضع قدمه عليه فصعد على مركبه ، وانه كان يتولى صب القهوة في مجلس والده وبذلك ضرب للناس المثل وحسن القدوة في التواضع وبر الوالدين . وبهذه المزايا الكريمـة والسجايا الحسنة بسط الله له هذا الملك ووصل له من اكناف هذه الدولة وانك لا تجد في ملوك وقته من هو أعلم منه بأصول الدين والاحكام ، وكان أوسع وابعد نظراً من بعض علماء وقته ، ولـه ذوق في الشعر والأدب ، وله وقت يقضي فيه بعض المطالعة ، ووقت عام يقرأ عليه بعض القراء في عدة كتب من تفسير وتاريخ وادب وغير ذلك مما يفسح العقول والأفكار ويفيد الحضور .

كان بعض الشعراء الشعبيين النجديين له حاجة عند عبد العزيز وهي عبارة عن اثبـات اسمه في الديوان واجراء عادة له سنوية ، وكانت مراجعاته في اوقات غير مناسبة فيقول له عبد العزيز : هيّن هيّن ، اي اصبر ، أو بعدين ، بمعنى الى فرصة أخرى ، فلما سأم من المراجعـة حضر يوماً بباب الملك عبد العزيز ورفع صوته بهذا البيت الذي جعله كوسيلة لنجاح مهمته والبيت :

يا من يعلمن بتاريخ هين الى قبل هين كم أخليه من يوم

فكانت بسمع من عبد العزيز ، وعندها امر باحضار كاتب وكتب للجهة المختصة باثبات اسمه في الديوان واجراء عادة سنوية . وكان هناك شاعر آخر فقير مدقع ، سافر الى الرياض ليثبت اسمه مع أهل العوايد والوافدين على قصر الملك فلم يوفق هذا الشاعر لدى ابن جميعه المسؤول عن ذلك ، بل طرده . فما كان منه الا ان وقف للملك في طريقه وهو ذاهب الى المربع فأنشد قائلاً :

يا بو تركي لا تنساني بن جميعه تناساني
لي عشرين ولي بتيه ووليدي سبعة بيضان
اجعلها منك الاهيه عند الله وارحم بزران
ان بغيتو لي ماريه ابحث في الدفتر تلقان

فما كان من الملك الا ان عطف عليه وقال له : لو قلت لي تسعين لكان اولى . وامر ان تثبت له تسعين ولولده عشرين وعباءة ، هكذا التواضع والحلم والكرم : وقوله . سبعة بيضان ، اي سبعة دراهم فضية والبتيه عباءة معروفة عند القوم ..

وكان هذا الشاعر قد ركبته ديون ادى بعضها الى رهن بيته الذي لا يملك سواه فلما حل الأجل ضايقه غريمه وعزم عليه ان يبيع الرهن فاتصل بي مستشيرا ، وكانت في ذلك الوقت حالي حويله ، وعمري يناهز التاسعة عشر ة فعرض علي مهمته وقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت .

وضاقت عليه الأرض حتى كأنها
من الضيق في عينيه حلقة خاتم

فقلت له في معرض الرأي : ليس لهذه المشكلة إلا أبو الشعب ، سافر اليه في الرياض واعرض قضيتك في ابيات طريفة لا تخلو من النكتة ، واعتقد جازماً انه سوف يعمل على ما فيه مصلحتك ومصلحة غريمك . فما كان من الشاعر الا ان سافر الى الرياض ووفد على عبد العزيز والقى هذه الأبيات في بعض مجالسه الخاصة في قصر البديعة بالرياض والأبيات هي :

جيتك عان يا بن سعود
انت سعود وبن سعود
وش الحيلة ون سرحت
عسى الفقر ما يعود
راحت داري في قرطاسه
راهنها بنك عربود
راهنها رهن يا سيدي
خمسة أشهر ما تزود
ان ما سلمت على الخمسة
رحت اهوبي مع فرهود [1]

---

(١) اسم كلب المؤلف .

قال الحرمي جهد السانه

الوك حوته وش ذا الفود

قلت الحرمي والله غيري

دن الكاتب هات شهود

ما عقب هدا إلا الموت

وانا هوز برمح السعود

يبو تركي لا تنساني

من عوايدك ابا عود

ابى الفكه على داري

وابى فرقا هالنمرود

حيثك حاكم وبن حاكم

وارث ملكك ورث جدود

تعطي جنيه وجيش وغيره

وأموالٍ ما تحصى زود

هذا تقدير من الوالي

تقديره عنده ما جود

علم الذره وعلم البقه

ووزن الخردل ووزن الطود

محد يا قف في ذ الماقف

لا كذاب ولا جحود

صلاة الله وتسليمـــــه

مع ريحان وفاخر عود

عـلى الشافـع المشفـــع
محمد احمد والمحمود

فما كان من عبد العزيز الرفيق الرحيم إلا ان عطف على هذا الشاعر البائس الفقير وامر بقضاء ديونه كلها وبذلك فك رهن مسكنه وبرِئت ذمته من حقوق الناس وسكن داره الى ان توفي رحمه الله .

ما نسب لعبد العزيز من الشعر

ومما ينسب لعبد العزيز من الشعر الشعبي هذه الأبيات :

روحن مثل القطا صوب الثميله ضمر تضفى عليهن العباة
واهنى الترف منسوع الجديله ما ضواه الليل عند مغرزات
وردوهن هيت واخطاه الدليله والموارد غير هيت مقضبات
آه من قلب على حام المليله لاتذكرت العصور الماضيات
عصر من ينطح مقاديم الدبيله لابتي لاجا نهار الموجبات
دون دين الله نتعب كل اصيله نبذل المجهود دون مخاشبات
من تعبث بالفرايض عزتي له تقعده حدب السيوف المرهفات

« هيت منهل معروف في نجد ، وهيت مدينة في العراق » وهناك ضيعة يقال لها الهيت من اعمال حوران من ناحية اللوى .

وروى لي بعضهم قال : كان عبد العزيز في عنفوان شبابه قد عمّد خادمه شلهوب ان يبحث عن زوجة له صالحة وذلك في بعض أسفاره ، لأنه كان عفيفاً منذ نعومة أظفاره ، وقد بحث شلهوب ولم يوفق للغرض المطلوب ، فقال عبد العزيز على سبيل المداعبة :

حسبي الله على شلهوب يوم سير على ربعه
خطبته ما تسد النوب ظبيه اللي ذكر ضبعه

ومن أخرى :

حسبي الله على شلهوب والقصيبي وبن جبر

وكان رحمه الله متخلقاً بالأخلاق الفاضلة منذ الصغر ، وشهد له عدوه وصديقه بالعفة والنزاهة والترفع عن الرذيلة ، وتنطبق عليه الأبيات الآتية :

لعمرك ما أهويت كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

ولقد انصف شاعر نجد الشيخ محمد بن عثمين في مدحه من قصيدة :

ليت الذي سكن الثرى ممن مضى من أهل بدر والبقيع المنور
نظروا صنيعك في المدينة والتي يهوي اليها كل اشعث أغبر
كي يشهدوا ان الفضايل قسمت بالفضل بين مقدم ومؤخر
ويسرهم إحياؤك الشرع الذي قد كان قبلك مثل روح مفرغر
عبّدت للملك العزيز تفاؤلاً والفأل تؤثر عن شفيع المحشر
سر بديع كان في اخفائه من قبل سعدك حكمة لم تظهر
وفضايل كنت الخليق بنشرها وترى الغبي بسرها لم يشعر
ظفر الحجاز من الزمان بغبطة بعد النبي وصحبه لم تخبر
أمنوا على أموالهم ودمائهم من بعد ما كانوا لأول مجتري
ولطال ما أخذ الفتى من بيته واليوم يمسي مصحراً لم يحذر

سلب الممالك أهلها بعزائم   ينسي مضاها عزمة الاسكندر
فاسلم ودم للدين رِدءاً ثابتا   تدعو الى سبل السلام الأكبر
وترد أعداء الاله بغيظهم   يتجرعون كؤوس دل أحمر

وعبد العزيز رحمه الله تنطبق عليه هذه الأبيات في حياته :

شبل نشأ ما داس بالعمر عذروب   ومنزه ما عاب غيره ولا عيب
ديم المحل مرغى الفحل عقب ماهوب
يرزم طويل الناب شوق الرعابيب
يضحي الوفا عقبه مواعيد عرقوب
حاشاه هو مدي حقوق المواجيب
فكاك عاقات ورجعان دالوب   سامع ندامن صنامه الوقت ويجيب
يستاهل البيضا على رأس مشهوب   وغالي سلامي يحتوي له بترحيب
وتحية مثل الذهب طاح مجلوب   في كف محتاج ولا له معازيب
الى صبر عند البلا كنه أيوب   وان علقت عمس الليالي كلاليب

عاش عبد العزيز حتى رأى مبلغ الخمسين ألف جنيه الضئيل في اول عمره في الرياض سنة ١٩٠٣ م – ١٩١٣ يتضاعف حتى يصبح مائة الف جنيه بعد احتلال الاحساء سنة ١٩١٣ م – ١٩٣٥ ويرتفع هذا المبلغ كثيراً حتى يصبح من اربعة ملايين الى ٥ ملايين بعد دخول الحجاز ١٩٢٦ – ١٩٢٧ وقد ازداد هذا المبلغ مليوناً آخر ، ثم حصلت الزيادات الباهظة واصبح التقدم واسع الخطى جداً ، حتى بات قرير العين في آخر سنة من حكمه . كان التحول الاقتصادي والسياسي في الجزيرة العربية في

خلال نصف قرن عملاً فذاً يفخر به اي انسان ، أما هو رحمه الله فقد كان يكره الأبهة والرسميات الكثيرة التي اضطر ان يتنازل لها ثمناً لعظمته. وتحت وطأة حر صيف مكة ١٩٥١ م أخذت الشيخوخة وسوء الصحة تظهران عليه ، فاضطر بسبب عاهة ركبته أن يستعمل الكرسي ذا العجلات في انتقاله ، وأصرّ بقدر استطاعته على الاحتفاظ بالنظام الذي درسه ووضعه طول حياته في امر الاتصال بمرؤوسيه في الوقت المعين. وقلما غادر قصوره الفخمة في المربع الواقع شمالي عاصمة ملكه الرياض ، وكأني به سجل مشاعره في مراحل حياته واعمال بطولته ومواقفه في القتال بعدما وضع السيف وجلس على الكرسي ذا العجلات بهذه الأبيات التي تنطبق عليه تماماً .

اصبح كفي مالكاً للعصا   من بعد حمل الأسمر الذابل
كأنني لم امش يوم الوغى   الى نزال البطل الباسل
ولم اشق الجيش لا اختشي   من الردى كالقدر النازل
فانظر الى ما فعل العمر بي   من طوله لم احظ بالنائل
يا حسرتا اني غداً ميت   على فراشي ميتة الخامل
هلا اتاني الموت يوم الوغى   بين القنا والأسل الناهل

فكم لقي من الأهوال واقتحم المخاوف والاخطار ولاقى الفرسان وهو من الرزايا في حصن حصين الى ان بلغ عشر الثمانين .

فهو كما قيل :

مع الثمانين عاث الدهر في جلد
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت

رجلي كأني اخوض الوحل في الجلد

فقـل لمن يتمنى طول مدتـه

هذي عواقب طول العمر والمدد

كان آخر اعماله رحمه الله فتحه الخط الحديدي في تشرين الاول عام ١٩٥١ م كما حضر بعض الحفلات الرسمية في الطائف في أواخر صيف ١٩٥٣ وكان قد سافر اليها في طائرة « سكاي ماستر » ، طائرته الخاصة . وفي النصف من تشرين الأول اصيب بنوبة قلبية خطيرة احدثت قلقاً عاماً بين صفوف شعبه وتواردت عليه البرقيات من رؤساء الدول العربية والأجنبية على اختلاف انواعها ، وعندما شفي حضر بعض المجتمعات العامة المعتادة ، غير ان عودة المرض اضطرته ان يلازم غرفته ، وهناك في الساعة الثالثة صباحاً في اليوم الثالث من ربيع الاول عام ١٣٧٣ توفي رحمه الله ، ونقل جثمانه من الطائف الى العاصمة ، الرياض ، على متن طائرة ودفن في مقابر آبائه وأجداده كما مر في اول الكتاب .

لعمرك ما الرزية فقد مالٍ ولا فرس يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

اين امسى هذا العبقري

أمسى بقبر مفرداً والترب قد جمعت عظامه
لم يبق إلا ذكره كالزهر مفتر الكمامه
فكأنه ما أمسك القلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعلُ متن مطهم يارى النعامه
وكأنه لم يرقَ غارب الاعتزاز ولا سنامه
فلكم ابان العدل في ارجائها وبها أقامه
ولكم اجار عداً وكم اجرى نداً وافي انسجامه
فكأنه ما جال في أمر ولا نهي وسامه
والعمر مثل الطيف أو كالضيف ليس له إقامه
والموت حتم ثم بعد الموت أهوال القيامه
والناس مجزيون عن أعمال ميل واستقامه
فذوو السعادة يضحكون وغيرهم يبكي ندامه
سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه
اعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامه
ومسدد أو جائر أو حائر يشكو ظلامه
والجاهل المغتر من لم يجعل التقوى اغتنامه

فلـيرفض العصيانَ من يخشى من الله انتقامه
والعيش في الدنيا الدنية غيرمـرجو الاقامه
من ارضعته ثديهـا في سرعة تبدى فطامه

قوله زرقاء اليمامة ، واليمامة اسمها ويضرب بها المثل ، وذكر الجاحظ انها كانت من بنات لقمان بن عاد ، وان اسمها عنز ، وكانت هي زرقـاء وكانت الزباء زرقاء ، وكانت البسوس زرقاء وكانت زرقـاء اليمامة التي ذكرها النابغة في شعره فقال:

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمامٍ سراع وارد الثمـد

كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة ايام ، فلما قتلت جديس طسمـاً خرج رجل من طسم الى حسان بن تبع فاستنهضه ورغبه في الغنائم ، فجهز اليهم جيشاً ، فلما صاروا من جوّ على مسيرة ثلاث ليـال صعدت الزرقاء فنظرت الى الجيش وقد أمروا ان يحمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ، ليلبسوا عليها ، فقالت : يا قوم قد أتاكم الشجـر أو اتتكم حِمْيَر ، فلم يصدقوها ، فقالت على مثل رجز :

اقسم بالله لقد دب الشجر أو حمير قد أخذت شيئاً يجَرّ

وقالت ايضاً :

اني ارى شجراً من خلفه بشر لأمرٍ اجتمع الأقوام والشجر

فلم يصدقوها فقالت احلف بالله لقد أرى رجلاً ينهش كتفاً او يخصف النعل فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم فاخذوا الزرقاء فشقوا عينيها فاذا فيها عروق سوداء من الاثمد وكانت اول من

اكتحل بالاثمد من العرب .

وفي ذلك يقول الاعشى في زرقاء اليامة

إذ ابصرت نظرة ليست بفاحشةٍ
اذ رفع الآل رأس الكلب فارتفعا
قالت ارى رجلاً في كفه كتفٌ
أو يخصف النعل لهفاً ايةً صنعا
فكذّبوهـــا بمـا قالت فصبحهم
ذوال حسان يزجي السمر والسلعا

هكذا يفعل بمن ضيع الحزم وآثر العجز وخون المستشار المؤتمن ولله در أبي مسلم الخراساني إذ يقول :

ادركت بالحزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بني مروان اذ حشدوا

ويقول البستي :

لا تستشر غير ندب حازم يقظ قد استوى فيه إسرار واعلان
فللتدابير فرسان اذا ركضوا فيها أبرّوا كما للحرب فرسان

كتب زياد بن ابيه الى معاوية يا امير المؤمنين قـد ضبطت لك العراق بشمالي وفرغت يميني لطاعتك فولني الحجاز فبلغ ذلك عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما وهو بمكة فقال اللهم اشغل عنا يمين زياد بما شئت ، فأصابه الطاعون في يمينه فأجمع رأي الاطباء على قطعها ، فاستشار شريحـاً فيما

رآه الأطباء ، فأشار عليه بعدم القطع وقال له : لك رزق مقسوم وأجل معلوم واني اكره ان كانت لك مدة ان تعيش في الدنيا بلا يمين ، وان كان دنا اجلك ان تلقى الله مقطوع اليد فاذا سألك لِمَ قطعتها قلتَ فراراً من قضائك وبغضا في لقائك ، قال فمات زياد من يومه فلام الناس شريحا على منعه من القطع لبغضهم له فقال لهم انه استشارني ، ولولا ان المستشار مؤتمن لوددت انه يقطع يوما يده ويوما رجله وسائر اعضائه يوما وشريح هذا هو الحرث بن قيس الكندي توفي سنة سبع وثمانين للهجرة وهو ابن مائة استقضاه عمر رضي الله عنه على الكوفة واقام قاضيا بها خمسا وسبعين سنة ، وامتنع من القضاء ثلاث سنين وذلك أيام فتنة ابن الزبير فاستعفى الحجاج من القضاء فاعفاه ، فلم يقضي بين اثنين حتى مات رحمه الله وكان من اعلم الناس بالقضاء وكان احد السادات الطلس وهم اربعة : عبدالله بن الزبير وقيس بن سعد بن عبادة والأحنف بن قيس وشريح المذكور وقد نظم احد الشعراء فقال :

عن السادة الطلس الكرام سألتني   فقلت هم الشم الغطارفة النبل
فدونك عبدالله نجل الزبير من   ولادته للكافرين بهـا فل
وقيس بن سعد وهو فرع عبادة   جواد له كف من الجود منهل
شريح هو القاضي بسبعين حجة   وما غاب يوما عن حكومته عدل
واحنفهم هو ابن قيس اخو الحجى   وفي حلمه الامثال تضرب من قبل

وقد اتى عدي بن أرطاة شريحاً في مجلس حكمه فقال : اين انت قال بينك وبين الحائط ، قال فاسمع مني ، قال للاستماع جلست . قال : اني تزوجت امرأة . قال : بالرفاء والبنين . قال : وشرط اهلها

أن لا أخرجها من بيتهم . قال : أوفِ لهم بالشرط . قال : فأنا اريد الخروج . قـــال : في حفظ الله . قال : فاقض بيننا . قال قد فعلت قال : فعلى من حكمت . قال : على ابن امك . قال : بشهادة من . قال : بشهادة ابن اخت خالك . فذهبت اقواله كلها امثالاً . والاطلس الذي لا شعر في وجهه .

خرج أبو نعيم في الحلية بسنده ، قال وجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه درعا له عند يهودي التقطها فعرفها فقال : درعي سقط عن جمل لي اورق فقال اليهودي درعي وفي يدي ، ثم قال اليهودي : بيني وبينك قـــاضي المسلمين ، فأتوا شريحاً فلما رأى علياً قد اقبل انحرف عن موضعه وجلس علي فيه ثم قال علي لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس لكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تساووهم في المجلس ، وساق الحديث قال شريح ما تشاء يا امير المؤمنين قال : درعي سقطت عن جمل لي اورق فالتقطها هذا اليهودي . قال شريح : ما تقول يا يهودي ؟ قال : الدرع درعي وفي يدي : قال شريح : والله يا امير المؤمنين الدرع درعك ، ولكن لا بد لك من شاهدين ، فدعا قنبراً والحسن بن علي فشهدا انها درعه ، فقال شريح : أما شهادة مولاك فقد أجزناها ، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها . فقال علي رضي الله عنه ثكلتك امك ، اما سمعت عمر بن الخطاب يقول قال رسول الله ﷺ : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . قال اللهم نعم . قال أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة ؟ ثم قال لليهودي خذ الدرع ، فقال اليهودي : امير المؤمنين جاء معي الى قاضي المسلمين فقضى لي.

ورضي ، صدقت والله يا امير المؤمنين انها درعك سقطت عن جمل لك التقطتها ، اشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله . فوهبها له علي رضي الله عنه وأجازه تسعماية وقتل معه يوم صفين . وقول شريح: والله انها درعك كأنه عرفها ، ويعلم انها درعه لكنه لا يرى الحكم بعلمه كما انه لا يرى شهادة الولد لأبيه فانظر ما ابرك العمل بالحق من الحاكم والمحكوم عليه وما آل من الخير للمدعى عليه .

من غرائب الملوك ونوادرهم

ومن غرائب الملوك ونوادرهم مما يستحق التسجيل ما ورد ان ملكاً من الملوك خرج يدور في مملكته فوصل الى قرية عظيمة فدخلها منفرداً فأخذه العطش فوقف بباب دارٍ من دور القرية وطلب ماءً ، فخرجت اليه امرأة جميلة بكوز فيه ماء وناولته اياه . فلما نظرها افتتن بهـا فراودها عن نفسها ، وكانت المرأة عارفة به فعلمت انها لا تقدر على الامتناع منه فدخلت وأخرجت له كتاباً وقالت : انظر في هذا الى ان اصلح من امري ما يجب وأعود . فأخذ الملك الكتاب ونظر فيه فاذا فيه الزجر عن الزنا وما أعد الله تعالى لفاعله من العذاب الأليم فاقشعر جلده ونوى التوبة وصاح بالمرأة وأعطاها الكتاب وفر ذاهباً . وكان زوج المرأة غائبا ، فلما حضر اخبرته الخبر ، فتحير الزوج في نفسه وخاف ان يكون وقع غرض الملك فيها فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك ومكث على ذلك مدة فأعلمت المرأة اقاربها بحالها مع زوجها فرفعوه الى الملك ، فلما مثل بين يدي الملك ، قال أقارب المرأة اعز الله مولانا الملك ان هذا الرجل قد استأجر منا ارضاً للزراعة فزرعها مدة ثم عطلها فلا هو يزرعها ولا هو يتركها لنؤجرها لمن يزرعها ، فقد حصل الضرر

للأرض ونخاف فسادها بسبب التعطيل لأن الارض اذا لم تزرع فسدت . فقال الملك لزوج المرأة ما يمنعك من زرع ارضك ، فقال أعز الله الملك انه قد بلغني ان الأسد قد دخل ارضي وقد هبته ولم أقدر على الدنوّ منها لعلمي بأن لا طاقة لي بالأسد . ففهم الملك القصة ، فقال يا هذا ان ارضك ارض طيبة صالحة للزرع فازرعها ، بارك الله لك فيها فان الأسد لن يعود اليها ثم أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفه .

حِكم تليق بالمقام

والناس صنفان موتى في حياتهم   وآخرون ببطن الأرض احياء

* * *

وهذه الدار لا تبقي على احدٍ   ولا يدوم على حال لها شان

وقال تعالى :

« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »

ان في الموت والمعاد لشغلاً   وادّكاراً لذي النهى وبلاغا

فاغتنم خصلتين قبل المنايا   صحة الجسم يا أخي والفراغا

* * *

عرضت بني ساسان في غلوائها   قدما على غرب الحسام المجدد

وكستهموا ثوب الصغار فغادرت   تلك الحدائق كالبراح المصلد

ورمت مقاصير القياصرة الألى   عظموا بسهم من رزايا مصرد

ونحت الى دار العظيم لحاظها   فاحتل دار العنقفير المؤيد

وثنت بغائلة الحكيم ولم يذد   عنه الردى ما صانه من عسجد

وسفت على الإقبال هوج رياحها   وزوت مدى عبد المدان الأقمد

ونزت على سبأ وعادِ نزوة فغدوا احاديث السمير السهد
وحدت بني مروان بعد الى الردى فخدت مبارئة الظليم الموفد
وغدت دساكر جلق صفراً كان لم تغش قط بجفد أو وفد
وحصت بني العباس املاك الورى بجهارها فغدوا حصيد العبرد

هذه الأبيات تحتاج الى اثبات بعض شرحها واليك الشرح :

بنو ساسان الفرس المتأخرون ينسبون الى ساسان الأصفر ، وكانوا ثلاثين ملكاً منهم امرأتان وفيهم رجال أولهم : ازدشير وآخرهم يزدجرد المقتول في خلافة عثمان رضي الله عنه . اما آخر الفرس الاقدمين فهو دارا بن دارا الملك المشهور واختلف في نسب الفرس فقيل هم من ولد فارس بن ناسور بن سام بن نوح ، ولا خلاف انهم من ولد كيومرت واليه يرجع القياصر ، جمع قيصر ، وهو لقب لملك الروم كما ان كسرى سمة لملك فارس ، وخاقان لملك الترك ، وتبع لملك حمير والنجاشي للحبشة والروم اولاد روم بن العيص بن اسحق بن ابراهيم عليهما السلام ، ويقال انه ولد ثلاثين ولداً منهم الروم وكان اصفر اللون فقيل لولده بنو الاصفر . والعنقفيز على وزن زنجبيل والقاف قبل الفاء الداهية .

والحكيم هو قاتل دارا وهو الاسكندر الفيلسوف اليوناني . ويقال له ذا القرنين وكان بين وفاته وبين الهجرة ستماية سنة ، وقيل اكثر ، ولما مات جعل في تابوت من ذهب وطلي بالاطلية الممسكة وحمل الى أمه بالاسكندرية ، قيل فجمع ارسطاليس عليه الحكماء وامرهم ان يتكلم كل منهم بكلام وكانوا عشرة فقال الأول :

اصبح آسر الأسرى اسيراً كان يخبىء الذهب فصار الذهب يخبؤه .

وقال الثاني : هذا الاسكندر طوى الأرض العريضة وهو اليوم يطوى في ذراعين .

وقال الثالث : العجب القوي قد عقب والضعفاء لاهون .

وقال الرابع : ما سافر الاسكندر سفراً بلا آلة سوى سفره هذا .

وقال الخامس : سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته .

وقال السادس : كان يحكم على الرعية فصارت الرعية تحكم عليه .

وقال السابع : كنت تأمرنا بالحركة فما بالك ساكناً .

وقال الثامن : رب حريص على سكوتك ، هو اليوم حريص على كلامك .

وقال التاسع : كم امات هذا الصندوق لئلا يموت فمات .

وقال العاشر : كان الاسكندر يعظنا بنطقه وهو اليوم يعظنا سكوته .

وقوله في البيت السادس : الأقيال وهم جمع قيل يقال اقتال عليهم اي ملك وهو قيل بتشديد الياء المكسورة اصله قيول من القول لأنه اذا ملك كان له القول وقلبت الواو ووقع الادغام كنظائره ، وقد يخفف كميت ، ثم اذا جمع فقد يراعى الحال ، فيقال : اقيال ، واشتهر هذا الاسم في ملوك حمير كما قال امرىء القيس :

لعمرك ما ان ضرني وسط حمير
واقوالهـــا الا المخيلة والسكر

والهوج جمع هوجاء وهي الريح الشديدة التي تقلع الاشجار والبيوت، وعبد المدان رجل من العرب ، وكان لبني عبد المدان عز وشرف وقد هجاهم حسان فقال :

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال واحلام العصافـــير

فقالوا : قد تركتنا نستحي بذكر اجسامنا بعدما كنا نفتخر بها ، ما لنا على هذا بقاء . فقال : سأغسل عنكم ما ازرا بكم .

ثم أنشد :

وكنا قائلين اذا رأينـــا لذي جسم يعد وذي بيان
كأنك أيهـــا المعطى بيانا وجسماً من بني عبد المدان

وهذا من قوة اقتدار الشعراء في المدح والذم ويسمى المغايرة ، وهي مدح الشيء بعد ذمه ، أو عكسه كقول الحريري في مدح الدنيا :

اكرم به اصفر راقت صفرته جواب آفاق ترامت سفرتـه
به يصول من حوته صرته كم جيش هم هزمتـه كرته

ثم ذمه بقوله :

تبـاً له من خادع مماذق اصفر ذي وجهين كالمنافق
زينة معشوق ولون عاشق لولاه لم تقطع يمين سارق
ولا بدت مظلمة من فاسق ولا شكى المطول مطل المائق .

وخير ما فيه من الخلائق ان ليس ينجيك من المضايق
الا اذا فر فرار الآبق آها لمن يقذفه من حالق

وقوله في البيت السابع .

ونزت الخ نزت وثبت نزا عليه نزواً ونزواناً ، وسبأ اسم بلد بلقيس ولقب لعبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، واليه ترجع قبائل اليمن ، وقصة سبأ وهلاكها جاءت في الكتاب العزيز والسمير المسامر من السمر ، وهو التحدث ليلا والسهد الساهدون وقوله في البيت الثامن

وحدت بن مروان الخ .

بنو مروان هم : عبد الملك وعبد العزيز وبشر ومن بعدهم من الملوك كالوليد وهشام وسليمان وعمر أولهم مروان بن الحكم وكان والياً ، وآخرهم مروان المنبوز بالحمار . وخدت اسرعت ، يقال حذا يحذي أسرع ، والظليم الذكر من النعام ، وقوله : مبارئة من المباراة وهي المعارضة والمغالبة والموفد المسرع .

وقوله في البيت التاسع :

وغدت دساكر الخ ..

الدساكر : بيوت يتخذها الأعاجم للشرب واللهو ، جمع دسكرة ، وجلق بكسر الجيم مع تشديد اللام مكسورة ومفتوحة هي دمشق ، وقيل عرصتها والصفر الخالي والحفد جمع حافد وهو الخادم ، والوفد جمع وافد وهو القادم .

وقوله في البيت العاشر :

وحصت بني العباس الخ ..

حصت رمت ، وحصاه بالحصى ، رماد وبنو العباس ملوك اسلاميون والعباس هو بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله ﷺ وأول ملوك بني العباس ، أبو العباس السفاح والجمار جمع جمرة وهي الحصاة والحصيد المحصود ، والعيرد على أمثال قنفذ من العشب الرقيق الرديء ، ومعنى البيت ان المنون رمت بجمارها ملوك بني العباس فصاروا كأنهم الحشيش المحصود وهذه الابيات تشابه في الموعظة والرثاء مرثية بن عبدون الفهري للملوك بني الافطس وهي :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر فما البكاء على الأشباح والصور
فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر
تسر بالشيء لكن كي تغر به كالأيم ثار الى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله وكان عضباً على الاملاك ذا اثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
ولم تدع لبني يونان من مدر
وما أقالت ذوي الهيئات من يمنٍ ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
وفرقت سبأ في كل قاصية فما التقى رائح منها بمبتكر
وخضبت شيب عثمان دماً وخطت الى الزبير ولم تستحي من عمر
واوثقت في عراها كل معتمد واشرقت بقذاها كل مقتدر
وروعت كل مأمون ومؤتمن وأسلمت كل منصور ومنتصر

قوله في البيت العاشر : وأوثقت في عراها كل معتمد ، هو المعتمد صاحب قرطبة وأشبيلية أبو القاسم محمد بن المعتضد من ولد النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة ، قال فيه وفي أبيه بعض الشعراء ، من الخفيف :

من بني المنذرين وهو انتساب   زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي   والمعالي قليلة الأولاد

وفي المعتضد يقول ولده المعتمد ، من بحر البسيط :

سميدع يهب الآلاف مبتدياً   ويستقل عطاياه ويعتذر
له يد كل جبار يقبلها   لولا نداها لقلنا انها الحجر

قصة المعتمد بن عباد

أما المعتمد فقال فيه علي بن القطاع في كتاب « لمح الملح » انه اندى ملوك الاندلس راحة وأرحبهم ساحة وأعظمهم ثمادا وأرفعهم عماداً ، ولذلك كان في حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء وقبلة الآمال ، وفيه يقول ابو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني الشاعر المشهور قصيدة يمدحه بها ويذكر اولاده الأربعة وهم : الرشيد عبيد الله والراضي يزيد والمأمون والمؤتمن ومن جملتها وقد أجاد واحسن ما شاء من بحر الطويل :

يغيثك في محل يعينك في ردى　　يروعك في درع يروقك في برد
جمال واجمال وسبق وصولة　　كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بهمته شاد العلا ثم زادها　　بناءً بابناء جحاجحة لدّ
بأربعة مثل الطباع تركبوا　　لتعديل جسم المجد والشرف العد

ومع هذه المكارم والاحسان لم يسلموا من لسان طاعن وفيهم يقول ابو الحسن جعفر بن ابراهيم بن الحاج اللورقي :

من بحر الطويل

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها اذا عدم المعروف في آل عباد
حللت بهم ضيفاً ثلاثة أشهر بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً ، وكان يؤدي الضريبة للاذفونش ، فلما ملك طليطلة لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في بلاده ، وأرسل اليه يتهدده ويقول له تنزل عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهل ، فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه ، فبلغ الخبر الاذفونش وهو متوجه لحصار قرطبة ، فرجع الى طليطلة لأخذ آلات الحصار ، فلما سمع مشايخ الاسلام وفقهاؤها بذلك ، اجتمعوا وقالوا هذه مدن الاسلام قد تغلب عليها الافرنج وملوكها منشغلون بمقاتلة بعضهم بعضاً ، وان استمرت الحال ملك الافرنج جميع البلاد ، وقد تفاوض الفقهاء والرؤساء فيما بينهم وآخر الأمر اجتمع الرأي ان يكتبوا الى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك الملثمين صاحب مراكش يستنجدونه وقد اجتمع بالمعتمد واجتمع معهم العساكر العظيمة ، وبلغ الأذفونش الخبر وهو بطليطلة ، فخرج في اربعين ألف فارس غير من أنضم اليه ، وكتب الاذفونش الى الأمير يوسف يتهدده وأطال الكتاب ، فكتب يوسف الجواب في ظهره الذي يكون ستراه ورده اليه ، فلما وقف عليه انزعج لذلك وقال هذا رجل عارم . ثم سار الجيشان والتقيا في مكان يقال له الزلاقة من بلد بطليوس وتصافا ، وانتصر المسلمون وهرب الاذفونش بعد استئصال عساكره ، وذلك يوم الجمعة في العشر الاول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين واربعماية ، وقال بعضهم ان الواقعة في منتصف رجب من السنة المذكورة وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتاً

عظيماً ، وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنـه وشهـد له بالشجاعـة وآخر الأمر ان الأمير يوسف أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها ومـا بها من المباني والمطاعم والبساتين التي لا توجد في مراكش وجعل خواصه يغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه فتغير عليه فقصده ، فحاصره أشد محاصرة وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وتراميـه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله ، فلما كان يوم الأحد العشرين من رجب سنة ٤٨٤ هجم عسكر الأمير يوسف وشنوا في البلد الغـارات ولم يتركوا لأحـد شيئاً . وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأيديهم وقبض على المعتمد وأهله وقد كان قتل له ولدان احدهما المأمون والثاني الراضي ، وكان والدهما يعتمد عليهما في بعض شؤونه . ولما اخذ المعتمد قيدوه من ساعته وجعل مع أهله في سفينة . قال ابن خاقان ثم جمع هو وأهـله وحملتهم الجواري المنشآت وضمتهم كأنهـم أموات ، وفي ذلـك يقـول عبد الجبار بن حمديس الصقلي الشاعر المشهور « من بحر الطويل » :

ولما رحلتم بالندى في أكفـكم   وقلقـل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت   فهذي الجبـال الراسيات تسـير

ثم انهم حملوا الى الامير يوسف بمراكش فأمر بارسال المعتمد الى مدينة اغمات واعتقله بها ولم يخرج منها حتى الممات . وفي اعتقاله يقول ابو بكر الداني من بحر البسيط :

لكل شيء من الأشياء ميقات   وللمـنى من منـاياهن غـايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس   ألوان حالاتـه فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده   وربمـا قمرت بالـبيدق الشاة

وهو غلط ، فان الشاه بالهاء الملك بالعجمي ، واذا كان كذلك فلم تسلم له التاء . ثم قال :

انفض يديك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد اقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأرضي قد كتمت
سريرة العالم العلوي اغمات

وقال من اخرى وقد انفكت عنه القيود :

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت
قيودك منهم بالمكارم ارحما

عجبت لأن لان الحديد وقد قسوا
لقد كان منهم بالسريرة اعلما

سينجيك من نجى من الجب يوسفا
ويؤويك من آوى المسيح بن مريما

وله في البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة مقاطيع جمعها في جزء لطيف أسماه « نظم السلوك في وعظ الملوك » ووفد على المعتمد وهو باغمات وفادة وفاء لا وفادة استجداء ، وحكي انه لما عزم على الأنفصال عنه بعث اليه المعتمد عشرين ديناراً وشقة بغدادية وكتب معها من بحر الوافر :

اليك النزر من كف الأسير فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يكون له حباء وان عذلته أحوال الفقير

وهي عدة أبيات ، قال أبو بكر فرددتها اليه لعلمي بحاله وانه لم يترك عنده شيئا وكتبت اليه جوابها . وهو من الوافر :

سقطت من الوفاء على خبير   فذرني والذي لك في ضميري
تركت هواك وهو شقيق نفسي   لئن شقت برودي عن عذور
جذيمة انت والزباء خانت   وما انا من يقصر عن قصير
أنا ادرى بفضلك منك اني   لبست الظل منه في الحرور

ودخل عليه بناته يوماً في السجن وكان يوم عيد ، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات حتى ان احداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه ، فرآهن في أطمار رثة وحالة سيئة ، فصدعن قلبه وأنشد من البسيط :

فيما مضى كنت بالاعياد مسروراً   فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة   يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة   ابصارهن حسيرات مكاسيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلاً   فردك الدهر منهياً ومأموراً
من بات بعدك في ملك يسر به   فانما بات بالاحلام مغرورا

ودخل عليه وهو في تلك الحال ولده ابو هاشم والقيود قد عضت ساقيه عض الاسود بعد خفق الألوية ، فلما رآه بكى وقال من السريع :

قيدي اما تعلمني مسلما   أبيت ان تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد   أكلته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشم   فينثني والقلب قد هشما

ارحم طفيلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم اخيات له قبله جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العما
والغير لا يفهم شيئا فما يفتح الا لرضاع فما

البيت الاخير حصل فيه جناس حسن

وقصة المعتمد غريبة لم يعهد مثلها ، وكانت ولادته في شهر ربيع الاول سنة ٤٣١ بمدينة باجه من بلاد الاندلس وتوفي في السجن باغمات لأحدى عشرة ليلة خلت من شوال ، وقيل ذي الحجة سنة ٤٨٨ .

ومن الغريب النادر انه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه ، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء وفي الابيات لابي بكر الداني قوله :

جذيمة انت والزباء خانت الخ لهـا قصة طريقه

خلاصتها ان الزباء لما قتلت جذيمة الابرش قعد عمرو ابن اخته مكانه وكان قصير وزيره كما كان لخاله . وكان وقت قتل خاله نجا على فرس تسمى العصا ، فطلب قصير ان يجدع عمر انفه واذنيه دهاء منه . ولقد قيل فيه المثل : لامر ما جدع قصير انفه لاخذ ثأر خاله ، فرحل قصير الى الزباء على هذه الحاله فاستأمنت له ، ثم بعد شدة وعناء اتى بالرجال مدججة بالسلاح في جوالق على ظهور الجمال فهربت الزباء الى نفق لها لتهرب منه فرأت عمراً على باب النفق ، فمصت خاتماً مسموماً كان بيدها وقالت : بيدي لا بيد عمرو . وماتت مكانها فاستولى على ملكها ...

وقال ابو بكر الداني حفيد المعتمد وهو غلام وسيم قد اتخذ الصناعة صياغة ، وكان يلقب في أيام **دولتهم** فخر الدولة وهو من الالقاب السلطانية عندهم ، فنظر اليه وهو ينفخ الفحم **بقصبة** الصائغ ، فقال من جملة قصيدة من البسيط :

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ضاقت عليك وكم طوقتنا النعما
وعاد طوقك في دكان قارعة
من بعد ما كنت في قصر حكى أرما
صرفت في آلة الصواغ انملة لم تدر الا الندى والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها فتستقل الثريا ان تكون **فما**
يا صائغاً كانت العليا تصاغ له حلياً وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى
اني رأيتك فيه تنفخ الفحما
ما حطك الدهر لما حط من شرف
ولا تحيف من أخلاقك الكرما
لح في العلا كوكباً ان لم تلح قمراً
وقم بها ربوة ان لم تقم علما

قال ابن خلكان : وأما ابو بكر محمد بن اسماعيل الداني المعروف **بابن** اللبانة فما رأيت تاريخ وفاته في شيء من الكتب ولا رأيت من يعلم **ذلك** . لكن رأيت في كتاب الحماسة التي صنفها ابو الحجاج يوسف **البياسي** ان ابن اللبانة قدم ميورقة في آخر شعبان سنة ٤٨٩ ومدح ملكها **مبشر** بن سليمان بأبيات أولها من الكامل :

ملك يروعك في حلى ريعانه راقت برونقه صفات زمانه

قال بن خلكان وكنت اظن انه مات قبل المعتمد لاني ما رأيت له فيه مرثية الى ان رأيت ما قاله البياسي اقول وقد كشفت من فوات الوفيات وغيرها انه توفي بميورقة سنة ٥٠٧ . وأما بن حمد يس فهو ابو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمد يس الازدي الصقلي شاعر معروف له ديوان مشهور توفي سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة ، وقيل ببجاية والصقلي نسبة الى جزيرة صقلية وهي من بحر المغرب من أفريقية .

وبن القطاع هو علي بن جعفر بن علي **الشنترين** السعدي نسبة الى سعد بن زيد مناة بن تميم الصقلي المولد المصري الدار والوفاة اللغوي كانت ولادته في العاشر من صفر سنة ٤٣٣ وتوفي بمصر سنة ٥١٥ ، كان احد أئمة الأدب خصوصاً اللغة ، وله تصانيف منها : الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة لمح الملح جمع فيه خلقاً من شعراء الاندلس وله كتاب الأفعال وله كتاب ابنية الأسماء وله عروض حسن جيد وتآليفه تدل على كثرة اطلاعه رحمه الله .

قلنا ان قصة المعتمد غريبة ولكن لا غرابة فهذا حال الدنيا عز وذل وحل وارتحال ، ولقد وصف التهامي الدنيا أبدع وصف في ابياته التي أولها في رثاء ولد صغير « من الكامل » :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الانسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار
طبعت على كدر وانت تريدها صفواً من الاقدار والاكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

واذا رجوت المستحيل فانما تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم والمنية يقظة والمرأ بينهما خيال سار
فاقضوا ما ربكم عجالا انما اعماركم سفر من الاسفار

ومن الحكم :

ليس الزمان وان حرصت مسالماً خلق الزمان عداوة الأحرار
ثوب الرياء يشف عن ما تحته فاذا التحفت به فانك عار
والهون في ظل الهوينا كامن وجلالة الاخطار في الاخطار
وتلهب الاحشاء شيب مفرقي هذا الضياء شواظ تلك النار
شيئان ينقشعان اول وهلة ظل الشباب وخلة الأشرار
لا حبذا الشيب الوفي وحبذا ظل الشباب الخائن الغدار
وطري من الدنيا الشباب وذوقه فاذا انقضى فقد انقضت أوطاري
نزداد هماً كلما ازددنا غنى والفقر كل الفقر في الاكثار
ما زاد فوق الزاد خلق ضائعاً في حادث او وارث او عار
اني لأرحم حاسدي لحرما ضمنت صدورهم من الاوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائلي فكأنما برقعت وجه نهار
وسترتها بتواضعي فتطلعت أعناقها تعلو على الاستار
ومن الرجال معالم ومجاهل ومن النجوم غوامض ودراري
والناس مشتبهون في ايرادهم وتفاضل الأقوام في الأصدار
عمري لقد أوطأتهم طرق العلا فعموا فلم يقفوا على آثار
لو ابصروا بقلوبهم لاستبصروا وعمى البصائر من عمى الأبصار

هلا سعوا سعي الكرام فادركوا	أو سلموا لمواقع الاقدار
وفشت خيانات الثقات وغيرهم	حتى اتهمنا رؤية الابصار
ولربما اعتضد الحليم بجاهل	لا خير في يمنى بغير يسار

لله دره ما أحسن شعره ، ويحسن هنا ان نورد له ترجمة مختصرة فنقول هو ابو الحسن علي بن محمد التهامي نسبة الى تهامة ، وكان شاعراً ذرب اللسان مخلىً بينه وبين ضروب البيان له ، ديوان شعر صغير أكثره نخب ، ومن شعره من جملة قصيدة من الكامل :

كم قلت اياك الحجاز فانه
ضَريَتْ جاذره بصيد اسوده
وأردت صيد مها الحجاز فلم
يساعدك القضاء فصرت بعض صيوده

ومن شعره المشهور من المسرح :

بين كريمين مجلس واسع	والود حال يقرّب الشاسع
والبيت ان ضاق عن ثمانية	متسع بالوداد للتاسع

وكان التهامي قد وصل الى الديار المصرية مستخفياً ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرح بن دغفل البدوي وهو متوجه الى بني قره فظفروا به ، فقال : انا من بني تميم ، فلما انكشف حاله عرف انه التهامي الشاعر فاعتقل في خزانة البنود وهو سجن بالقاهرة وذلك لاربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ ثم قتل سراً في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة الاولى من السنة المذكورة رحمه الله ، وكان رحمه الله

قد رآه بعض أصحابه في النوم ، فقال ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي . فقال فبأي الأعمال ؟ قال بقولي في مرثية ولد لي صغير :

جاورت اعدائي وجاور ربه
شتان بين جواره وجواري

ومن لطيف نظم التهامي قوله من جملة قصيدة طويلة يمدح بها الوزير أبا القاسم بن المغربي من السريع :

قلت لخلّي وثغور الربا مبتسمات وثغور الملاح
ايهما أحلى ترى منظراً فقال اعلم كل ورد اقاح

ومثل هذا ما ينسب الى ابن سناء الملك من بحر الخفيف :

فتحيرت احسب الثغر عقداً لسليمى واحسب العقد ثغرا
فلثمت الجميع قطعاً لشكي وكذا فعلُ كل من يتحرى

وللتهامي في المديح وقد بالغ فيه من الكامل :

اعطى واكثر فاستقل هباته
فاستحيت الانواءُ وهي هوامل
فاسم السحاب لديه وهو كنهور
آل واسماء البحور جداول

وقول التهامي :

وتلهب الاحشاء شيب مفرقي هذا الشعاع شواظ تلك النار

معناه مأخوذ من قول ابي نصر سعيد بن الشاه وهو من الخفيف :

قالت اسودّ عارضاك بشَعْرٍ
وبـه تقبُـح الوجـوه الحسان
قلت أشعلتِ في فـؤادي ناراً
فعَلى وجنتيّ منها دخان

وصاحب البيتين السابقين ابن سناء الملك هو القاضي السعيد هبة الله ابن جعفر بن المعتمد سناء الملك محمد بن هبة الله السعدي الشاعر المشهور المصري صاحب الديوان له الشعر البديع والنظم الرائق ، احد عقلاء الأدب والرؤساء النبلاء ، اختصر كتاب « الحيوان » للجاحظ ، وسمي « المختصر روح الحيوان » تسمية لطيفة ، وله ديوان جميعه موشحات سماه « دار الطراز » .

كان مولده في حدود سنة خمسين وخمسماية ، وقيل ٥٤٨ وتوفي في يوم الاربعاء رابع شهر رمضان سنة ثمان وستماية بالقاهرة .

ومن محاسن شعره بيتان من جملة قصيدة من الطويل :

ولو أبصر النظّام جوهر ثغرها
لمـا شك فيه انه الجوهر الفرد

ومن قال ان الخيزرانــة قدها

فقولوا له اياك ان يسمع القد.

ومن محاسن شعره من السريـع :

وما كان تركي حبه عن ملالة

ولكن لأمرٍ يوجب القولَ بالترك

اراد شريكا في الذي كان بيننا

وايمان قلبي قــد نهاني عن الشِرك

بعض القصائد العربية والشعبية

في عبد العزيز

واليك بعض قصائد عربية وشعبية في الملك عبد العزيز من مـدح ورثاء ، ونبدأ بالقسم العربي ثم نتبعه الشعبي ، وهذا قليل من كثير ، وبعض من كل ، وقطرة من بحر ، فكم هناك قصائد لفحول لم نوردها لكونه لا يسعها هذا الكتاب ، ونحيل الباحث على دواوين أصحابها . وأرجو ان لا يؤاخذني بعض القراء بما أثبته من الشعر الشعبي فقد سبقني علماء اجلاء منهم : ابن خلدون وغـيره ، حيث أثبتوا هـذا النوع في الجزيرة وغيرها ، وهو مظهر جلي لعاداتنا وأحوالنا ، وقد سجل ظرفاً تاريخياً ، ووضح في كثير من الأحوال بعض الحقائق التاريخية .

وقد قال الدكتور طه حسين ان كل اديب لا يستقي مادته وروحه من الادب الشعبي فليس أديباً ولا هو بكاتب للأدب ، ويمضي الدكتور ويقول : ولسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الادب الشعبي عنايةً ما ، وقال : هذا الادب العربي الشعبي يرويه في البادية جماعة من الرواة يتوارثونه عن آبائهم ويورثونه لأبنائهم ويكسبون بروايته حياتهم المادية ومكانتهم الممتازة أحياناً .

ومن القصائد التي أشرنا اليها نثبت هنا بعض ما نظمه الشيخ أحمد ابراهيم الغزاوي ، وبهذه المناسبة نثبت له ترجمة قصيرة ، فنقول هو الاستاذ الكبير احمد ابراهيم الغزاوي ولد بمكة المكرمة سنة ١٣١٨ وتلقى علومه بمكة المكرمة واشتغل في عدة وظائف عالية في عهد الملك الحسين رحمه الله ، ثم في عهد الحكومة السعودية ، تقلب في عدة وظائف عالية آخرها نائب رئيس مجلس الشورى ، وهو عين من أعيان العلم والأدب ، قريضه يزري بقراضة الذهب ، له رأي مصيب وخاطر في النظم عجيب ، له شعر وشذرات وملح تحكي أطواق الحمام وسوالف الغزلان وأجنحة الطواويس .

ومن الغريب في التاريخ ان الرجل قام في الموسم بمكة اكثر من اربعين سنة متوالية ينشد فيها حولياته في مزدحم الوفود وما بين زعماء وعلماء وملوك ورؤساء ويثير بواعث الهمم في قلوب العالم الاسلامي والعربي ويدعو الى اعلاء كلمة التوحيد والاباء والشمم والتعاطف والتآلف ومكارم الأخلاق مما لم يتهيأ لشخص آخر في التاريخ هذه المدة الطويلة .

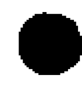
وقد حاز شاعرنا أرفع الاوسمة من اكثر ملوك ورؤساء الدول العربية الاسلامية وترأس عدة لجان ومجالس وقام برحلات عديدة الى البلاد العربية والاسلامية واليك نص القصائد :

وأخشى الذي تخشاهُ في « مِصرَ » أنها
تُنافِسُنا فيكَ الهوى ، فَنضيعُ ؟!

« نقلا عن جريدة ام القرى عدد ١٠٨٨ »
« ٨ صفر ١٣٦٥ هـ : وقد اقيمت في الحفل الشعبي الكبير بميناء جدة لتوديع جلالة المغفور له الملك عبد العزيز رحمه الله الى مصر الشقيقة » في ٤ صفر سنة ١٣٦٥ .

قالت (ام القرى) : « ننشر فيما يلي القصيدة الرائعة التي انشدها بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في رصيف ميناء جدة الشيخ حمد بن ابراهيم الغزاوي شاعر جلالة الملك وعضو مجلس الشورى ؛ وقد نالت الاستحسان واستعيدت ابياتها :

أمامك من حفظ الإله (دروع) وخلفك شعب طامح ؛ وربوع
وأيان ما تمضي مشينا — كأننا وإياك ؛ قلب نابض ؛ وضلوع !



كأني — بهذا البحر — يهزج فلكه وقد صفقت في شاطئيه « قلوع »
عيد على عيدٍ — ويجزر مائساً كما انهل ودق ؛ واسبطرّ ربيع !

تكاد به الامواج تنطق غبطة وتسبق بالبشرى ضحى– وتضوع!

●

بيرديك « شخص واحد » غير انه (معد) اصول قد زكت وفروع!
والا فما بالي ؟ ارى الناس ازلفت إليك ؛ وكلٌ سامع ؛ ومطيع !
يودن لو كانوا حنانيك – هالة عليك ؛ ومنهم في الركاب جموع!

●

وقد علمو ان « الكنانة » اصبحت مواكب فيها للحبور – نجوع !
تقدمها « الفاروق » يلقاك مشرقاً (بفردوسه) المخضل وهو ولوع!
ولوع – بمن فيه (العروبة) أقبلت لشمس ؛ وفيه للبدور طلوع !
بناصردين الله ؛ « بالعاهل » الذي به الله لم الشعث فهو جميع !

●

واخشى الذي نخشاه في مصر انها تنافسنا فيك الهوى ؛ فنضيع !

●

هنالك اشياع ؛ اباحوك حبهم وكل امرىء منهم اليك نزوع !
هنالك كون زاخر ؛ وكواكب تضيء ؛ وروض يانع وجذوع !
هنالـــك ارواح اليك مشوقة مرفرفة – تشري الهوى وتبيع !
رنت فهي في (فاروقها) مشرئبة اليك ؛ وفيك المجد حيث يروع!
إلى مأزر التقوى؛إلى معقل الحجى ومن هو حصن – للأباة منيع !

●

اراك مشاع الحب في كل امة لكل بلاد في رضاك ؛ صنيع !

اجل ؛ إنه التوفيق — لا شك انه من الله ؛ والدنيا رؤى ؛ ورتوع !
بنيت : فأعليت الصروح — وانما بناؤك كان الحق — وهو صدوع !
وها أنت تجني اليوم غرسك مثمراً وتمرح في شطئيه ؛ وهو مريع !



فسر في امان الله واسطع على الالى خلا لك ؛ فيهم جنة وزروع !
وذرنا ! وما نلقى ببعدك من جوى مدى الظرف ما للعين عنك هجوع !
فما نحن إلا حيث انت جميعنا حواليك أو في راحتيك خضوع !
وعدت وريف الظل مؤتلق الضحى وأنت (ثناء) و « الاثير » مذيع !
وخولك الرحمن ماشئت من منى بها الشرق يسمو والسلام يشيع !
ولا زلت مرفوع اللواء مظفراً ودونك يخطو — ظالع وضليع !
ولا برحت نعماك بالشكر في الورى تزيد — وأنف الشانئيك جديع !

« جدة » ٤ صفر سنة ١٣٦٥ احمد بن ابراهيم الغزاوي

« ملاحظة » :

كان الشاعر في طريقه الى جدة مع بعض رفاقه من علية القوم بعد ظهر نفس اليوم للتوديع ، وفي السيارة نظم هذه القصيدة الوداعية خلال ساعة : وانشدها جلالة الملك في الميناء الذي غص بكافة طبقات الشعب من بدو وحاضرة ومن سفراء الدول العربية والاسلامية والاجنبية ؛ وقد حدث اثناء انشادها في ذلك الازدحام العظيم — أن كانت بعثة الشرف



الشاعر أحمد الغزاوي

المصرية – ومن بين اعضائها الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد – الى جانبي جلالته في صفين متقابلين : وعندما وصل الشاعر في انشاده الى البيت : « واخشى الذي نخشاه في مصر انها » توقف .. قليلاً .. واستأنف هذا الشطر فقط مرتين ... مما اثار هواجس رجال البعثة – والعقاد خاصة – وجعل جلالته يتطلع اليه في توقع وترقب ! وماذا عسى ان يخشى ؟ أأصابه مس ؟ أعتد ؛ واحتد نظره اليه .. وكان موقفاً شديد الحرج ! وقد اشرأبت اليه الاعناق ؛ وخشيت العاقبة . فأعاد البيت كاملاً .

واخشى الذي نخشاه في مصر أنها تنافسنا فيك الهوى فنضيع !

وهناك افترت المباسم .. وعلت اصداء التصفيق ... مدة طويلة ... وكانت (طرفة) ما يزال حاضروها يتندرون بها في المجلس حتى اليوم ؛ ثم دعي الشاعر (برقياً) من عرض البحر ليكون في معية جلالته في زيارة لمصر .. واضطر ان يلحق بالحاشية الملكية على متن طائرة .. ولاول مرة كان عليه ان يمتطيها ... رغم تأبيه عن ذلك طويلاً ! واشترك في المحافل الملكية كلها بمصر وله فيها (قصائد مطولة) اخرى نشرتها الصحف واذاعتها الاذاعة في حينها ويجدها القارىء في دواوينه العطرة !

رثاء جلالة الملك عبد العزيز يوم وفاته

ما يَقولُ « النُّعاةُ »؟! ويحي! أرْجفٌ؟؟
زلزل الأرض أين مني الصواب ؟؟!!

نشرتها البلاد السعودية بعدد ١٤٠٢ — ٥ ربيع الاول سنة ١٣٧٣

فدح الخطب ؛ واستطار المصاب وبكى الشعب — حسرة — والشعاب!!
وكأن القلوب توقد — ناراً وكأن العيون مُهل ؛ مذاب!!

●

ما يقول النعاة؟ ويحي ! أرجف ؟ زلزل الأرض !! اين مني الصواب !!
إنه الحق — هكذا الموت — فيه تتساوى الفروق ؛ والأنساب !

●

مات « عبد العزيز » رحماك ربي أتغيض البحور ؛ وهي عباب !
مات « عبد العزيز » إذ هو طود تفتديه شوامخ ؛ وهضاب !

مَا رأت مثله العصور – عظيماً (عبقرياً) ؛ ولا تهادى الركاب !

●

(عاهل) مطأ (الجزيرة) مجداً لبسته البلاد ؛ والاحقاب !
طأطأت دونه « العروش » والقت بعصاها الخطوب والاسباب !
واستفز « التوحيد » فيه هزبراً تتهاوى بسيفه الانصاب !

●

أنجز الله (وعده) فيه ؛ حتى اسلمته زمامها الآداب !
ثقف النصر – ؛ والعتاد يقين واقتضى الدهر ما طواه التراب !
فإذا الصعب في يديه ذلول وإذا الجدب في ذراه اختصاب !
وإذا الدين للهداة (منار) واذا العلم في ضحاه قباب !
وإذا العرب دولة ذات بأس وهي من قبله (لقى) ؛ ويباب !
واذا الناقمون من كل (قيل) و (وقبيل) بشدقه أنياب !
واذا البؤس والشقاء ؛ نعيم وإذا الشاة والذئاب صحاب !
وإذا الارض بالكنوز تنزّى وإذا المال والشراء وطاب !
وإذا البيد بالحدائق زهر وإذا الغيد عفة وحجاب !

●

جمع الله في هواه شتاتاً وأباة ولم يعزه ؛ العقاب !
وبه استمسك البناء ؛ وزانت شرعة الحق ؛ وازدهى (المحراب) !

●

اين امضي ؟ وكيف لي بالمعاني وسعت كل ما احاط (الكتاب) !
إنه للغرور ! كل يراع فيه يكبو ! ويعجز الاطناب !

فكأني احسُّ قلبي صلداً أو جماداً ! طغى عليه الضباب !
إن خير البيان عندي صمت هو في معرض (الرثاء) العجاب !
أفأقوى عليه ؟ إذ هو جحر فيه ألقى ؛ وبالشواظ أذاب !

●

أنصفوني فلست والله إلا (مضغة) شفها البلا واللغاب !
إنني ما خفقت أصبر حزني في ارتجاع ؛ وقد دهاني المصاب !
ما مصابي كواحد من معد بل معد بأسرها الانتحاب !
بالعظيم العظيم ؛ يرتد عنه كل طرف ؛ وتقصر الاحساب !
بالذي فيه كل قلب ؛ أو عين لهب زافر ؛ وحزن ملاب !
بالأمام « المليك » بابن سعود قاهر الخصم ؛ إذ هو الوثاب !

●

إيه يا عبرة تحور اختناقاً أنت – لا النزع – للحياة استلاب !
صاعق لم يذر ؛ ولم يبقَ ماء في جفون – غمارهن السحاب !

●

كبت الحزن والردى كل قلب صهرته الفجيعة المتعاب !
وأراني وقد شرقت حطاماً لا أعي ما أقول ؛ لولا المثاب !
آه ! لله ما قضى ؛ واليه يرجع الامر كله ؛ والمتاب !

●

أمة – كالغمام – تبكي (فقيداً) هو منها الضحى ؛ ومنها الرباب !
بوغتت بالمنون ؛ لم ينج منها ذو اختيال ولا « نبي » مجاب !

أين مني (الرثاء) فيمن تغشّى (رحمة الله) ؛ والجنان الرحاب!
كل باك عليه ؛ فيه سجل من ثناء ؛ وكل ناع كتاب !
غادرتني فيه عشية امس ! (باقلياً) وما بعيّ أُعاب !
صدمة دونها أرى الصبر طفاً عزني فيه (يا أُساتي) الخطاب !
غير ان الاعصار يعصف عصفاً يصدع الراسيات ! كيف الذباب!

●

ليس هذا البلاء يسبك شعراً (بالقوافي) ولا هو الاطراب !
بل هو الهوى ! لم أفق منه غشياً أين من واقعه الضبا ؛ والحراب !

●

ما كأن السماء فوقي — إلا تصهر الارض ، وهي دوني سراب!

●

يا ابا الاعينين من كل ندب هو فينا العزاء ، والاحتساب !
أنت ما زلت بين شعبك تحيا في (خلود) — وشأوك الغلاب !
إلخ ....

وقد ختمها بقوله

وسقى الغيث بكرة وعشياً (جدثاً) — (بالرياض) وهو جناب!
فيه يثوي « ابو العروبة » تترى (رحمة الله) فوقه ، والثواب ؟

مكة المكرمة — ٣ — ربيع الاول سنة ١٣٧٣ **احمد بن ابراهيم الغزاوي**

ومِنْ محكم (الفرقان) لألآءِ « تاجِه »
ومِنْ «سُنَّةِ الهَادي» البَشير (مَعاقدُهْ)

تهنئة جلالة الملك عبد العزيز – تغمده الله برضوانه
في عيد الاضحى المبارك (بمنى) في
الاحتفال العام بقصره العالي الملكي
في – ١١ ذي الحجة سنة ١٣٦٥

« نقلا عن جريدة ام القرى عدد ١٠٨١ »
« ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٦٥ »

لك « العيد » تحيا حيث تبدو عوايده ... ومنك – معانيه – وفيك (قواصده)
إذا (الوفد) القى في بساطك نظرة ... ترأى له (المجد) الذي انت ماجده
حقيق بك (الاعجاب) أنك أمة ... وانك شعب بين برديك (واحده)
فمادا تروني استطيع من الثنا ؟ ... على (ملك) تعيي الثناء محامده
على (ملك) ؛ آمنت بالله – أنه ... هو (الفلك الدوار) زانت مشاهده
من (الخلفاء الراشدين) سبيله ... وفي (الباقيات الصالحات) فراقده
ومن(محكم الفرقان) لألاء (تاجه) ... ومن « سنة الهادي البشير » معاقده

به التأم الشمل الشتيت ؛ وأقبلت (حظوظ) ؛ وردت في العدو مكائده
وفيه التقى الاسلام من كل جانب وعزت به اخلاقه ؛ و (عقائده)
محى بالحسام العضب كل ضلالة عن (الدين) حتى هادنته طرائده
وشيد « بالتوحيد » أركان عرشه وفي العلم راجت من نداه معاهده

●

وتلك (بيوت الله) تشهد أنه به عمرت في كل ربع مساجده
على أنه — والشكر لله — « عاهل » يفوز مواليه ؛ ويخزى معانده
وما أنا في حبي له اليوم واحد ولكنما الدنيا جميعاً — تعاضده

●

ألا أيها الجمع الملبون (وقفة) بها ينطق (الاضحى) وينصت وافده
نقلب فيها الذكريات ؛ لعلنا بذلك نقضي حقه ؛ ونعاوده

●

هو (الحج) إلا إنه في افتراضه من الله فضل — ليس تحصى فوائده
وما هو ذخر المرء (يوم معاده) فحسب ؛ ولكن كل ما سر واجده

●

فكيف — وهذ الامن ضاف رواقه على كل (فج) اين سالت روافده
وكائن ترى ؛ من هاجع تحت ايكة وآخر بين (الأخشبين) مزاوده
تحدى — مع التفريط — من هو سارق ولكنه الشخص الذي هو فاقده

●

فمن شاطىء « الاحساء » شرقاً ومغرباً إلى البحر ؛ حيث الفلك تأوي قواعده
تروح وتغدو الموقرات (لطائماً) من الجوهر المكنون تغري فرائده
فلا شبح الاجرام يلمح طيفه ولا الطمع الخداع ينقض مارده

●

له الويل معتراً إن ابتز كاسياً ولو لبس الليل الذي هو وائده
(حدود) أقيمت ليس فيها هوادة ولا حكم الا (الشرع) تذري حصائده

●

وما من شفيع في (قصاص)ولا هوى اذا اما استحق السيف من هو جالده

●

بذلك ؛ لا بالبطش من غيرما هدى ولا بالتواني – طوقتنـا قلائـده
هو الطائع ؛ البر ؛ الحليم ؛ وكلنا له « ولد » بشرى الذي هو والده

●

فأما اذا ما المشكلات تأزمت وفاضت كئوس الشر ؛ واغتر عامده
فما هي الا (لمحة) ثم (خطفة) ويا بؤس من دوت عليه رواعده
كان (نزاراً) قبضة في يمينه ألستم معي فيما أرى واشاهده
لك الظفر الموعود ؛ والموكب الذي يموت ويحيا في تمنيه حاسده
وجدت بياني فيك اسهل مرتقى ومن لي بالشعر الذي انت رائده
فعش هانئاً في كل عيد ؛ وموسم و (آل سعود) ؛ ما اتقى الله عابده

« القصر الملكي بمنى » – ذي الحجة سنة ١٣٦٥ هـ **احمد بن ابراهيم الغزاوي**

مشت اليك « بهم ام القرى » جذلاً
وملؤها ، الشوق ، والايمان ، والنسك

نقلا عن جريدة « ام القرى » عدد ١٠٧٨
٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٦٥
« وقد انشدت بين يدي جلالة الملك عبد العزيز تغمده الله برحمته ورضوانه في الحفلة الكبرى باستقبال جلالته بمناسبة قدومه من الرياض ... الى مكة ... لأداء فريضة الحج المبارك في - ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٦٥ .

قالت ام القرى في عددها ١٠٧٨ — ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٦٥ : « نزف الى قراء ام القرى هذه الدرة الغزاوية المتلالئة ؛ وقد انشدها شاعر جلالة الملك وعضو مجلس الشورى الاستاذ احمد بن ابراهيم الغزاوي بين يدي جلالته في قاعة الاستقبال الكبرى بالبلاط الملكي في الحفلة الشعبية التي اقيمت لاستقبال جلالته ؛ وهي غنية بمعانيها السامية الرائعة ؛ واسلوبها العربي المتين عن كل وصف وتعريف ؛ قال :

أشرق على الشعب واسطع ايها « الملك » فأنت للدين شمس ؛ والهدى (فلك)
واشهد (بقصرك) آفاقاً - ممثلة جميعها لـك في الاخلاص تشترك

والمس بيمناك أعشاراً حللت بها   تلق التي لك فيها الحب يعترك
تدنو اليك عيون القوم شاخصة   كان أهدابها من فوقها حبك
تعب في مشرع للضوء منبجس   من نور وجهك لا يلوي به الحلكَ
مشت اليك بهم «ام القرى» جذلاً   وملؤها الشوق؛ والايمان؛ والنسك
من كل مضطلع بالشكر—منتجع—   كأنما قلبه في الوجد ينسبك
تعروه رعدة (أداب) سرائره   في الله ترعد ؛ لا صيد؛ ولا شرك
يعدو إلى الله — والدنيا كأن بها
من « نفحة الصور » ما يشجى به الحنك
مفتونةً بالقوى ؛ شتى مظاهرها   كأنما سِترها المسدول ينهتك
تذري مدامعها الأقطار من رهق   ويستبد بها الإقتار ؛ والضنك
ويسبق الأمس يومٌ في برائنه   فرائس بالدم المهراقِ تنسفُك

* * *

وفي السماء ؛ قضاء الله محتجب
عنا — وفي الأرض من أوزارها حسك
ترنحت تحت هول الحرب ؛ وانفرجت
مسافة الخلفِ ؛ حتى ما لها درك
واستعرض البشر الاعباء مضنية   كأنما هم حيارى أيةً سلكوا
لا يعلمون ، ولا يدرون ، ما اختبأت
به (المقادير) أو يمضي به « الملك »

* * *

طرائق — كل شعب — في نوازله   كأنما هو « بالقطبين » يشتبك

وعالم الإنس — في أهدافه شيَم كالبحر يسبح في أمواجه السمك
و (طاقةالنور) جل الله— جائحة كأنها (نيزك) في الخلق ينفرك
والله أرحم ، والغفران ملتمس وما لنا دونه حولٌ ، ولا حرك

***

« قل للذين مشوا فوق الثرى مرحاً »
وصعَّروهـا خدوداً ، أينما فتكوا
كم عبرةٍ ، في غضون الدهر ناطقة؟ في الغابرين،وما شادوا،وماتركوا
وكم مواعظ فيها كل زاجرة ؟ كأنهـا نذرٌ تضرى وتبترك
يتلى بها في هدى «فرقاننا» قصص حاشا به«صاحب التوحيد»يرتبك

* * *

وعد من الله أعيـا أن يجادلنا فيه سوى ملحد ، يردي به الهلك
من يتق الله يجعل — في مآزقه له « المخارج » مهما ضاقت الشكك

* * *

هذا (خطابك) في الآفاق تنفثه نجوى «فلسطين»في أطوائها(فدك)
قرت به كل عينٍ أنت قرتها وكل قلبٍ على كفيك ينسبك

* * *

فثلت فيه — ولم تُشْطط — كنانتها
على بُغاث « بني صهيون » إذ أفكوا
ألقمتهُم فيه أحجاراً مسومة فخيطهم وهنٌ ، والحبل منبتك

* * *

وفي (الكتاب) وعيدٌ للألى انطلقوا
في الموبقات وراء الغي ، وانهمكوا
ووعده الصدق فيمن ظل (يحفظه) في السر والجهر — لا من راح يعتلك
وأنت لا شك — يا مولاي — ناصره فكل شأو بحول الله تمتلك

* * *

لا زلت ترفل في النعماء وارفة ظلالها ، وبك الآمال تدرك
ما رددت في غصون الأيك ساجعة
أشرق على الشعب، واسطع أيها (الملك)

مكة المكرمة — القصر الملكي : ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٦٥

احمد بن ابراهيم الغزاوي

قال الشاعر النجدي محمد بن عبد العزيز بن عيثمين هذه القصيدة في عبد العزيز نبشها له بشرحها

عُجْ بي عَلَى الرَّبْعِ حَيْثُ الرَّنْدُ وَالْبَانُ وَإِنْ نَأَى عَنْهُ أَحْبَابٌ وَجِيرَانُ

عُجْ : فعل أمر من قولهم عاج عَوْجًا ومَعَاجًا : أقام ووقف ورجع وعطف رأس البعير بالزّمام . قال ذو الرمّة :

خَلِيلَيَّ عُوجا مِنْ صُدُورِ الرَّوَاحِلِ بِجُمْهُورِ حَزْوَى وابْكِيا فِي الْمَنازِلِ
لَعَلَّ انْسِكابَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحَةً مِنَ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلابِلِ

وقال غيره :

خَلِيلَيَّ عُوجا بَارَكَ اللهُ فِيكُما وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْدٌ لأَرْضِكُما قَصْدا
وَقُولا لَها لَيْسَ الضَّلالُ أَجازَنا وَلٰكِنَّنا جُزْنا لِنَلْقاكُمْ عَمْدا

هذان البيتان ذكرهما في «الحماسة» لورد الجعدي ، وذكرهما في « الأغاني » للمرقش الأكبر ، ولهما حكاية لطيفة ، ذكرها صاحب « الأغاني » قال : « غَنَّى عُلْوِيَّةُ الأعسر يوماً عند المأمون فقال :

تَخَيَّرْتُ مِنْ نُعْمانَ عُودَ أَراكَةٍ لِهِنْدٍ ولٰكِنْ مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدا

---

١ – ولد عام ١٢٧٠ وتوفي ١٣٦٣ يعتبر من فحول الشعراء بل شاعر نجد على الاطلاق في وقته وهو واسع الاطلاع عالم فذ في جودة القريحه وخصوبة الشاعريه وغزارة الفهم

فقال المأمون : اطلبوا لهـذا البيت ثانياً فلم يعرف، وسأل كل من بحضرته من أهل الأدب والرّواة والجلساء عن هذا الشعر فلم يعرفه أحد . قال حميد الـكاتب والحـكاية عنه : لمـا رأيت ذلك عنيت بهذا الشعر وجهدت في المسألة ، وطلبته ببغداد عند كل متأدّب ، فلم يعرفه ، فقلّد المأمون أبا الرّازي كورة دِجْلَةَ وأنا أ كتب له ، ثم نقله إلى اليمامة والبحرين ، فلما خرجنا ركبت مع أبي الرّازي حماره ، فابتدأ الحادي يحدو بقصيدة طويلة ، فإذا البيت الذي أنا أطلبه منهـا ، فسألته عنها فذكر أنها للمرقش الأ كبر فحفظت منها هذه الأبيات :

خَلِيـلَيَّ عُوجا بارَكَ اللهُ فِيكُما ... وإنْ لَمْ تَكُنْ هِنْدٌ لأرْضِكُما قَصْدا
وقُولا لهَا لَيْسَ الضَّلالُ أجازَنا ... ولٰـكنَّنا جُزْنا لنَلْقاكُمُ عَمْدا
تَخَيَّرْتُ من نُعْمانَ عودَ أراكةٍ ... لِهِنْدٍ ولٰـكِنْ مَنْ يُبَلِّغُهُ هِنْدا
وأَنْطَيْتُهُ سَيْفِي لِـكَيْما أُقِيمهُ ... فلا أَوَدًا فِيه اسْتَبَنْتُ ولا حَصْدا
ستَبْلُغُ هِنْدًا إنْ سَلِمْنا قَلائِصٌ ... مَهَارَى يُقَطِّعْنَ الفَلاةَ بنا وَخْدا
فَلَمّا أَنَخْنا الْعِيسَ قَدْ طَالَ سَيْرُها ... إلَيْهِمْ وَجَدْناهُمْ لَنا بالقرَى حَشْدا
فَناوَلْتُها الْمِسْواكَ وَالقَلْبُ خائِفٌ ... وَقُلْتُ لَها : يا هِنْدُ أهْلَكْتِنا وَجْدا
فَمَدَّتْ يَدًا فِي حُسْنِ دَلٍّ تَناوُلًا ... إلَيْهِ وَقالَتْ : ما أرَى مِثْلَ ذا يُهْدَى
فَأَقْبَلْتُ كالْمُجْتازِ أَدَّى رِسالةً ... وَقامَتْ تَجُرُّ الْمَيْسَانِيَّ وَالْبُرْدا

تَعَرَّضُ لِلْحَيِّ الَّذِين أُرِيدُهُمْ وَمَا الْتَمَسَتْ إلَّا لِتَقْتُلَنِي عَمْدا
فَمَا شِبْهُ هِنْدٍ غَيْرُ أدْماء خاذِلٍ من الوَحْش مُرْتاعٍ مُراعٍ طَلًا فَرْدا

قال : فكتبت بها إلى المأمون فاستحسنت ورويت . »

والرَّبع : الدار بعينها حيث كانت ، جمعها رباع ورُبوع وأرْبُع وهي المحلة والمنزل قال كثيّر عزّة :

خَلِيلَيَّ هٰذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلا قَلُوصَيْكُما ثُمَّ ابْكِيا حَيْثُ حلَّتِ

وقال أبو تمام :

عَلَى مِثْلِها من أرْبُعٍ وَمَلاعِبٍ أُذِيلَتْ مَصُونَاتُ الدُّموعِ السَّواكِبِ

والرَّنْد : شجر طيب الرائحة ، و يطلق على العود والآس . والبان : شجر لين المعطف تشبّه به قدود الجواري الناعمات . قال ابن الدُّمَينة واسمه عبد الله :

أأنْ هَتَفَتْ وَرْقاء في رَوْنَقِ الضُّحَى على فَنَنٍ من غُصْنِ بانٍ ومِنْ رَنْدِ

وقال ابن المعلم :

رُدُّوا عَلَيَّ شَوارِدَ الأظْعَانِ مَا الدَّارُ إنْ لم تَغْنَ مِنْ أوطَاني
وَلَكِمْ بِذاكَ الْجِزْعِ من مُتَمَنِّعٍ هَزَأَتْ مَعاطِفُهُ بغُصْنِ الْبانِ

وقال سبط بن التعاويذي :

وَلِي إلى الرَّمْلِ مِنْ بانِ الحِمَى وَطَرٌ فاليَوْمَ لا الرَّمْلُ يُصْبِينِي وَلا الْبانُ

وقوله : وَإنْ نَأى عَنْهُ أحْبابٌ وَجِيرانُ ، إشارة إلى ما يوجبه المحبون على أنفسهم من الوقوف في منازل الأحباب ، ومعاهد الأفراح والشباب ، كما في البيت بعده وهو قوله :

فَلِلْمَنَازِلِ فِي شَرْعِ الْهَوَى سُنَنٌ ... يَدْرِي بِهَا مَنْ لَهُ بِالْحُبِّ عِرْفَانُ

ومن سُنَنِها الوقوف بها ، وسؤالها عن سكانها واستخبارها عن قطّانها ، وإن كانت قد أقفرت منهم ، وأقوت بعدهم . قال ذو الرمّة :

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلالِ مَيَّةَ وَاسْأَلِ ... رُسُوماً كَأَخْلاقِ الرِّداءِ الْمُسَلْسَلِ
أَظُنُّ الَّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ ادِّكارَها ... دُمُوعاً كَتَبْدِيدِ الجُمانِ الْمُفَصَّلِ

وقال امرؤ القيس :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وإنما ذكرنا هذه المنازل لأنه ربّما قد قضى فيها وطراً من شبابه، وواصل في مغانيها أحبابه وقال أبو الطيّب المتنبي :

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلالِ إن لَمْ أَقِفْ بِها ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خاتَمُهْ

فذكر أن وقوفه فيها منحنياً كهيئة الراكع لأن من عادة الذي يلتمس شيئاً قد

ضاع له ، إن كان صغيراً جلس له ، و إن كان كبيراً نظر إليه وهو واقف ، والخاتم لم يكن صغيرًا فيجلس له ، ولم يكن كبيرًا ينظر إليه وهو واقف ، وأتى بعدهم المعرّي فقال :

تَحِيّةَ كِسْرَى في السَّناء وَتُبَّعٍ   لِرَبْعِك لَا أرْضَى تَحِيَّةَ أَرْبُعِ

فامرؤ القيس وقف واستوقف ، و بكى واستبكى صاحبه ، والمتنبي وقف وقفة الحائر المتفكر ، والمعرّي تجاوز إلى مالا يصلح فخضع لربع أحبابه كما يخضع في الجاهلية من يحيّي كسرى وتبّعاً .

وقوله :

وَقَلَّ ذَاكَ لِمَغْنًى قَدْ سَحَبْنَ بِهِ   ذَيْلَ ٱلتَّصَابِي بِرَسْمِ ٱلشَّجْوِ غِزْلَانُ

المغنى : المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا . وقوله : قد سحبن به ذيل التّصابي ، هذا يسمّيه أهل البديع الاستعارة ، ومنه قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيباً) وقوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة) . والتّصابي : طلب ما يقتضيه الصّبا . يقال : أصْبَتْه المرأة وتَصَبَّتْه ، شاقته ودعته إلى الصبا فحنّ إليها . والشّجو : الحزن ، يقال : شجاه ، أحزنه وأطربه كأشجاه ضد ، يعني أن الذي ذكره مما يفعله المتقدّمون من الوقوف بالدِّمَن والآثار قليل لهذه الدار التي قد سحبت بها هذه الجواري

الحسان ذيل التبختر ومشين بها مشي المتأطّرِ ، ومن عادة العرب أن تعبّر عن النساء الحسان بالغزلان فهنّ مع ماضممن من الحسن والجمال ، فارغات القلوب والبال كما قال أبو تمام :

فَرَغْنَ للشَّجْوِ حَتَّى ظَلَّ كُلُّ شَجي   حَرَّانَ فِي نَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ شُغُلُ

وقال حمل بن زياد :

فِيها عَقَائِلُ أمْثالُ الدُّمَى خُرُدٌ   لَمْ يَغْذُهُنَّ شَقا عَيْشٍ ولا يُتُمُ

وقوله :

اَلْقَاتِلاَتُ بِلَا عَقْلٍ وَلَا قَوَدٍ   سُلْطَانُهُنَّ عَلَى اَلْأَمْلَاكِ سُلْطَانُ

العقل في هذا : الدية ، وعاقلة الرجل عصبته . والقود : معروف ، يعني أن هؤلاء النّساء الحسان يقتلن بألحاظهنّ ، ويفتكن بقدودهن ، ولا يَدِينَ ولا يُقدِن ، ومنه قولهم : إنهن يغلبن الكرام ، ويغلبهن اللئام ، ومما ينسب للرشيد العباسي :

سَلَبَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عِناني   وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكلِّ مَكانِ
ما لِي تُطاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّها   وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيانِ
ما ذاكَ إلَّا أنَّ سُلْطانَ الْهَوَى   وَبِهِ قَوِينَ أعَزُّ مِنْ سُلْطانِي

وقال أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك بضم الراء وتشديد الزّاي المكسورة :

النّاسُ طَوْعُ يَدِي وَأَمْرِي نافِذٌ فِيهِمْ وَقَلْبِي الآنَ طَوْعُ يَدَيْهِ
فَاعْجَبْ لِسُلْطانٍ يَعُمُّ بِعَدْلِهِ وَيَجُورُ سُلْطانُ الغَرامِ عَلَيْهِ

وقوله :

لِلّهِ أَحْوَرُ سَاجِي الطَّرْفِ مُقْتَبِلٌ عَذْبُ اللَّمَى لُؤْلُؤِيُّ الثَّغْرِ فَتّانُ

لله : كلمة تعجب ، يقال : لله كذا . ولله دَرُّ كذا . والحَوَر : أن يشتد بياضُ بياضِ العين وسواد سوادها وتستدير حَدَقتها وترقّ جفونها ويبيضّ ما حواليها ، أو شدَّة بياضها في شدّة سوادها في شدّة بياض الجسد . وقوله : ساجي الطَّرف ، أي ساكنه وفاتره . يقال : سجا البحر إذا سكن ، وسجا الطَّرْف اذا كان فيه فتور ، وامرأة سَجْوى الطرف ساجيته . مقتبل : يحتمل معنيين أحدهما أنه مقتبل الشباب غضّه، والثاني أن يكون مقبولاً محبوباً عند من رآه. واللَّمى مثلثة: سمرة في الشفة وهي محمودة في النساء ، قال ابن النحاس :

وَتَعاهَدْنا عَلَى كَأْسِ اللَّمَى أَنَّنِي ما دُمْتُ حَيًّا لَسْتُ أَصْحُو

لؤلؤيّ الثغر : يعني أن أسنانه بيض كبياض صافي الدّر قال الحريريّ :

وَأَقْبَلَتْ يَوْمَ جَدَّ الْبَيْنُ فِي حُلَلٍ سُودٍ تَعَضُّ بَنانَ النَّادِمِ الحصِرِ
فَلاحَ صُبْحٌ عَلَى لَيْلٍ أَقَلَّهُما غُصْنٌ وَضَرَّسَتِ البِلَّوْرَ بِالدُّرَرِ

أراد بالليل الشعر ، و بالصّبح الوجه ، و بالغصن القد ، و بالبلّور البنان ، و بالدرر الثنايا . المعنى أن هذه المرأة جمعت هذه الخصال المحمودة في النساء وهي الحَوَر في العينين ، والسّمرة في الشّفتين ، واقتبال الشباب ، و بياض الأسنان ، وهـذه الصّفات مما يفتتن بها الرّجال .

وقوله :

عَبْلُ ٱلرَّوَادِفِ يَنْدَى جِسْمُهُ تَرَفَاً ظَامِي ٱلْوُشَاحِ لَطِيفُ ٱلرُّوحِ جَذْلَانُ

العبل : الضخم . والرّدف : ما تحت الخصر . قال الحكم الخُضْري :

تَسَاهَمَ ثَوْباها فَفِي الدِّرْعِ دَارَةٌ وَفِي الْمِرْطِ لَفَّاوانِ رِدْفُهُما عَبْلُ

والترف : نعومة الجسم ، والتّرفة بالضم : النعمة ، وأترفته النعمة : أطغته أو نعمته ، والمترف : المتروك يفعل ما يشاء ، والمتنعم لا يمنع من نعمته . ظامي الوشاح ، والوشاح بالكسر والضم : عقد يتّخذ من لؤلؤ وجوهر تشدّه المرأة بين كشحيها يقال: غرثى الوشاح هيفاء . كنى بالظمأ عن لطافة الوسط وانهضامه . لطيف الروح : أي خفيف الروح لطيف المنادمة من رآه أحبه :

فِي وَجْهِهِ شافِعٌ يَمْحُو إساءَتَهُ عِنْدَ الأنامِ وَجِيهٌ حَيْثُ ما شَفَعا

والجَذَل : الفرح الذي هو ضد الحزن .

وقوله :

كَأَنَّمَا ٱلْبَدْرُ فِي لَأْلَاءِ غُرَّتِهِ   يَا لَيْتَ يَصْحَبُ ذَاكَ ٱلْحُسْنَ إِحْسَانُ

الكاف للتشبيه . والبدر : القمر الممتلئ . واللألاء : النور ، ومنه تلألأ البرق إذا لمع . والغُرَّة : الوجه . ليت : كلمة تمنٍّ لما لا يرجى حصوله ، والبخل في النساء محمود يمدحن به ، قال الطّغرائي :

قَدْ زَادَطِيباً أَحَادِيثَ الْكِرَامِ بِهَا   مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخَلِ

ولذلك قالوا : خصلتان محمودتان في النّساء مذمومتان في الرّجال : الجبن والبخل، وضدّهما في الرّجال ، لأن المرأة إذا كانت لا تهاب فربّما خرجت إلى فعل تسوء معه حالها ، و إذا كانت سخيّة فربما لا تعرف مواضع السّخاء فتضرّ بزوجها ولا سيما إذا كان من غير أهل اليسار . قال عروة بن أُذينة رحمه الله تعالى :

إِنَّ الَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا   خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوًى لَهَا

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا   بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي :   مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

باكرها النّعيم : سيق إليها في أول أحوالها فأدقّها أي أتى بها دقيقة فيما يستحبّ ذلك فيه مثل الخصر والأنف ، وأجلّها فيما يستحبّ ذلك فيه مثل الرّدْف والسّاق ، والشاهد قوله : « حجبت تحيّتها » وقوله : « ما كان أكثرها لنا » لو بذلتها ،

« وأقلّها » كلفة عليها ، لـكنها لم تبذلها مع خفّتها عليها .

وقوله :

يَهْتَزُّ مِثْلَ اُهْتِزَازِ ٱلْغُصْنِ رَنَّحَهُ   سُكْرُ ٱلصِّبَا فَهْوَ صَاحِي ٱلْقَدِّ نَشْوَانُ

أي يتمايل في مشيته ، ويتبختر في حركته ، كالغصن الذي يميله نسيم الريح يميناً وشمالًا . رنّحه : أماله سكر الشباب فهو صاحي القدّ مما يعيبه ، نشوان من خمرة شبابه ونعيمه ، قال تميم بن أُبي بن مقبل :

يَمْشِينَ مَشْيَ النَّقا مالَتْ جَوَانِبُهُ   يَنْهالُ حِيناً وَيَنْهاهُ النَّـدَى حِينا
يَهْزُزْنَ لِلْمَشْيِ أَبْدَانًا مُنَعَّمَةً   هَزَّ الشَّمالِ ضُحًى عِيدانَ يَبْرِينا
أَوْ كَاهْـتِزازِ رُدَيْـنِيٍّ تَعاوَرَهُ   أَيْدِي التِّجارِ فَزادُوا مَتْنَهُ لِينا

وقوله :

لَوْ كَانَ يُمْـكِنُ قُلْنَا ٱلْيَوْمَ أَبْرَزَهُ   لِيَنْظُرَ ٱلنَّاسُ كُنْهَ ٱلْحُسْنِ رِضْوَانُ

لو : حرف امتناع لامتناع يقتضي في الماضي امتناع ما يليه . والممكن : ما جاز وجوده وعدمه ، وما لا يمكن : لا يتصوّر وجوده . والإبراز : الإظهار . وكنه الشيء : جوهره وغايته وقدره . ورضوان : خازن الجنان عليه السّلام . والمعنى أنه

مستحيل في هذه الدار إخراج شيء مما أعدّه الله لأوليائه في الجنة ، إذ لو أمكن لقلنا إن هذه الجارية الكاملة في الحسن أبرزت لينظر الناس حقيقة الجمال . ولا أستحضرُ أحدًا ذكر هذا المعنى إلّا ابن النبيه فإنه قال :

سَاقٍ سَها رِضْوانُ عَنْ حِفْظِهِ ففَرَّ مِنْ جُمْلةِ حُورِ الْجِنانْ

وقوله :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ ٱلشَّمْلَ مُلْتَئِمٌ وَٱلْحَبْلَ مُتَّصِلٌ وَٱلْحَيَّ خُلْطَانُ

قد : حرف تحقيق وتوقع . أحسب أن الشّمل ملتئم : مجتمع . قال ابن أبي ربيعة :

أَهِيمُ إلَى نُعْمٍ فَلا الشَّمْلُ جامِعٌ وَلا الْحَبْلُ مَوْصُولٌ وَلا الْقَلْبُ مُقْصِرُ

وقوله : والحبل متصل ، الحبل : هو الذّمّة والعهد والأمان والوصل والتواصل . والحيّ خلطان : أي بعضهم مُخالِطٌ بَعْضٍ . قال الشاعر :

بانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُووِعْتُ ما بانا وَقَطَّعُوا مِنْ نَوَى الْأَقْرانِ أَشْطانا
بانُوا بأُتْرُجَّةٍ نَضْحُ الْعَبِيرِ بِها يُكْسِي تَرائِبَها دُرًّا وَمَرْجانا

وقوله :

فَٱلْيَوْمَ لَا وَصْلَ أَرْجُوهُ فَيُطْمِعَنِي   وَلَا يَطِيفُ بِهٰذَا ٱلْقَلْبِ سُلْوَانُ

الوصل : معروف . والرّجا : ضدّ اليأس . والطمع : شدة الطلب مع الحرص . يطيف : يقال طاف يطيف طيفاً ومطافاً وطاف يطوف طوفاً بمعنى واحد ، أي فاليوم لا مطمع في الوصال فتستريح إليه نفسي ، ولا سبيل إلى السلوّ فيسلو قلبي كما قيل :

فيَا مَنْ لِنفسٍ لا تَمُوتُ فَيَنْقَضِي   عَناهَا وَلا تَحْيا حَياةً لهَا طَعْمُ

ومما ينسب لمجنون بني عامر :

فَوَاللهِ ما فِي القُرْبِ لِي مِنْكِ راحَةٌ   وَلا البُعْدُ يُسْلِينِي وَلا أَنا صَابِرُ

وَوَاللهِ ما أَدْرِي بِأَيَّةِ حِيلَةٍ   وَأَيِّ مَرامٍ أَوْ خِطارٍ أُخاطِرُ

فَلَو كُنْتِ إِذْ أَزْمَعْتِ هَجْرِي تَرَكْتِنِي   جَمِيعَ القُوَى وَالعَقْلُ مِنِّيَ وافِرُ

وَلٰكِنَّ أَيَّامِي بِحَقْلِ عُنَيْزَةٍ   وَبِالرَّضْمِ أَيَّامٌ جَناها التَّجاوُرُ

وَقَدْ أَصْبَحَ الوُدُّ الَّذِي كانَ بَيْنَنا   أَمانِيَّ نَفْسٍ وَالمُؤَمِّلُ حائِرُ

لَعَمْرِي لَقَدْ رَنَّقْتِ يا أُمَّ مالِكٍ   حَياتِي وَساقَتْنِي إِلَيْكِ المَقادِرُ

وهذه أصعب الحالات وأشقّ المقامات إذا امتنع الوصل وعزّ الصبر .

وقوله :

فِي ذِمَّةِ ٱللهِ جِيرَانٌ إِذَا ذُكِرُوا   هَاجَتْ لِذِكْرِهِمُ فِي ٱلْقَلْبِ أَحْزَانُ

أي في حفظ الله وكلاءته جيرانٌ جاورتهم في عنفوان الشّبابُ، و بلغت بهم المراد، ونلت بهم ما ناله بجاره أبو دؤاد، فهم كما قال الصفيّ :

لاعَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أنَّ النَّزِيلَ بِهِمْ يَسْلُو عَنِ الاهْلِ وَالأوْطَانِ والحَشَمِ

وقوله : هاجت : ثارت . يقال : هاج أي ثار كاهتاج . والهمّ : الحزن . ومن عادة من تذكر مواطن أفراحه، ومجاورة من أزال بهم همّه وأزاحه، أن يهيج لذكرهم وجده وغرامه لا سيما إن كان قد ضربت عليه هنالك للسّرور خيامه .

قال النّابغة الجعدي :

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ لِذِي الأَسَى وَمِنْ عادَةِ الْمَحْزُونِ أنْ يَتَذَكَّرَا

وقال ابن الخياط واسمه أحمد :

خَلِيلَيَّ لَوْ أبْصَرْتُمَا لَعَلِمْتُمَا مَكانَ الْهَوَى مِنْ مُغْرَمِ الْقَلْبِ صَبِّهِ
تَذَكَّرَ وَالذِّكْرَى تَشُوقُ وَذُو الْهَوَى يَتُوقُ وَمَنْ يَعْلَقْ بِهِ الْحُبُّ يُصْبِهِ
غَرامٌ عَلَى يَأْسِ الْهَوَى وَرَجائِهِ وَشَوْقٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزارِ وَقُرْبِهِ
وَفِي الْحَيِّ مَحْنِيُّ الضُّلوعِ عَلَى جَوًى مَتَى يَدْعُهُ داعِي الْغَرامِ يُلَبِّهِ
إذا خَطَرَتْ مِنْ جانِبِ الْغَوْرِ نَفْحَةٌ تَبَيَّنَ مِنْها داؤُهُ دُونَ صَحْبِهِ

وهذه الأبيات من قصيدة طنانة لولا خوف الإطالة سقتها كلها، وما ألطف قول ابن المعلم :

أَجِيرانَنــا إنَّ الدُّمُوعَ الَّتي جَرَتْ رِخاصًا عَلَى أيْدِي النَّوَى لَغوالِي
أَقِيمُوا عَلَى الْوادِي وَلَوْ عُمْرَ ساعَةٍ كَلَوْثِ إزارٍ أوْ كَحَلِّ عِقــالِ
فَــكَمْ ثَمَّ لِي مِنْ وَقْفَةٍ لَوْ شَرَيْتُها بِنَفْسِيَ لَمْ أُغْبَنْ فَــكَيْفَ بِمــالِي

ولعل متشوّقاً أن يتشوّف لخبر أبي دؤاد . أبو دؤاد اسمه الحارث بن الحجاج يتصل نسبه إلى إياد بن نِزار بن معدّ ، شاعر قديم من شعراء الجاهلية كان وصّافاً للخيل . قال صَاحب « الأغاني » : « أخبرني الحسين بن يحيى ، (ثم ساق سنده) أنْ أبا دؤاد الإيادي مدح الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان فأعطاه عطايا كثيرة ، ثم مات ابن لأبي دؤاد في جواره فوَداه ، فمدحه أبو دؤاد ، فحلف له الحارث إنه لا يموت له ولد إلّا وداه ، ولا يذهب له مال إلّا أخلفه . فضربت العرب المثل بجار أبي دؤاد ، وفيه يقول قيس بن زهير :

أُطَوِّفُ ما أُطَوِّفُ ثم آوِي إلَى جارٍ كَجَــارِ أَبِي دُؤَادِ

وفي رواية أخرى بدل أطوّف :

سَأَفْعَلُ ما بَدا لِي ثُمَّ آوِي إلَى جارٍ كَجَــارِ أَبِي دُؤَادِ

وإن القضية له مع النّعمان ، وإنه قتل له بنون ثلاثة خارجين إلى الشام ، وإن النُعمان وَدَى الثلاثة كل واحد بمائتي بعير ، وفي سياق القصة طول تركته .

وقوله :

فَارَقْتُهُمْ أَمْتَرِي أَخْلَافَ سَائِمَةٍ يَسُوقُهَا وَاسِعُ الْمَعْرُوفِ مَنَّانُ

أمتري : أستدرّ . أخلاف سائمة : السائمة هي المتخذة للدَّرّ والنّسل . كنى عن اضطرابه في الأرض وجولانه بين الطول والعرض والسائمة بالتماسه الرّزق في مظانه وتطلبه في أمكنته ، ومن عادة الحالب مسح الضّرع لعلّه يدرّ ، كذلك المتسبّب في طلب الرّزق لا بد من الإتيان بالسبب المناسب للطلب . قال الحطيئة — شاهد الْمَرْي — :

وَقَدْ مَرَيْتُكُمُ لَوْ أَنَّ دِرَّتَكُمْ يَوْمًا يَجِيءُ بِهَا مَسْحِي وَإِبْسَاسِي

ثم ذكر أنه يطلب من المولى الكريم والجواد الرحيم . قال تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) .

وقوله :

لَعَلَّ نَفْحَةَ جُودٍ مِنْ مَوَاهِبِهِ يُرْوَى بِهَا مِنْ صَدَى الْإِقْتَارِ عَطْشَانُ

لعل : كلمة ترجٍّ . والنفحة : القطعة . والموهبة : جود من فضل عطائه وكرمه . والصّدى : العطش والحرارة . قال الشاعر :

فَأَصْبَحْتُ كَالْهَيْمَاءِ لِلْمَاءِ مُبْرِدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا

والإقتار والتقتير : الرّمقة من العيش والتضييق فيه . ثم ذكر أنه ليس قصده بضربه في فسيح البسيط ، وإعماله للمطيّ من غور إلى نجد ، طلب رزق يقتصر به على نفسه وينفرد به عن أبناء جنسه . قال ابن المُقرَّب :

وَلا أَكُونُ كَمَنْ يَسْعَى وَغايَتُهُ وَمُنْتَهَى سَعْيِهِ لِلرّيِّ وَالشِّبَعِ

فقال :

أُرِيشُ مِنْهَا جَنَاحاً حَصَّهُ قدَرٌ شَكَا تَسَاقُطَهُ صَحْبٌ وَإِخْوانُ

يقال أراش السّهم يُريشه : ألزق عليه الرّيش ، والصديق أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله ونفعه . قال جرير :

سَأَشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشِي وَأَنبَتَّ القَوادِمَ فِي جَناحِي

وقال آخر :

أَراشُوا جَناحِي ثُمَّ بَلُّوهُ بِالنَّدَى فَلَمْ أَسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِمْ طَيَرانا

حصّه : حلقه ، ورجل أحصّ : قليل شعر الرأس ، وكذا طائر أحصّ الجناح ، وهو أبلغ من القصّ ، قال عروة بن الورد فيمن رضي بأدنى معيشة :

لَحى اللهُ صُعْلُوكاً إذا جَنَّ لَيْلُهُ مَضَى فِي المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزِرِ

يَنامُ عِشاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طاوِياً يَحُتُّ الحَصَى عَنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ

يُعِينُ نِساءَ الْحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ ۝ وَيُمْسِي طَلِيحاً كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ
وَلٰكِنَّ صُعْلُوكاً صَحِيفَةُ وَجْهِهِ ۝ كَضَوْءِ شِهابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ
مُطِلاًّ عَلَى أَعْدائِهِ يَزْجُرُونَهُ ۝ بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ الْمَنِيحِ الْمُشَهَّرِ
فَذٰلِكَ إِنْ يَلْقَ الْمَنِيَّةَ يَلْقَها ۝ حَمِيداً وإِنْ يَسْتَغْنِ يومًا فأَجْدِرِ

ثم ذكر أنه في سعي الفتى لطلب الرزق والعزّ دليل على علو همته وإعذاره نفسه فقال :

وَفِي اُضْطِرَابِ اْلْفَتَى نُجْحٌ لِبُغْيَتِهِ ۝ وَلِلْمَقَادِيرِ إِسْعَادٌ وَخِذْلاَنُ

اضطرب : تحرّك واكتسب . والنّجح والنّجاح : الظفر . والبغية : الطلب . ثم ذكر أن المعول في ذلك على الله تعالى وتقدس ، وأن أقداره غالبة . قال صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » وقال أبو تمام :

لأَمرٍ عَلَيهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدورُهُ ۝ وَلَيسَ عَلَيهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَواقِبُهْ

لكن العبد مأمور بالسعي فيما يعنيه ، والله الموفّق . ولم يزل الشعراء والفضلاء يحثّون على التقلب في الأرض لاكتساب الرّزق وعزّة النفس ، وأبلغ من قولهم قوله تعالى : (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وقال الطّغرائي :

إن العُلا حدّثتني وهْيَ صادِقةٌ | فيما تُحدّثُ أنَّ العزَّ في النُّقَلِ
لوْ كانَ في شَرَفِ المأْوَى بُلُوغُ مُنًى | لمْ تبْرَحِ الشَّمْسُ يوْمًا دارةَ الحَمَلِ

وقال أبو العتاهية :

نَقِّلْ ركابَكَ في الفَلا | ودَعِ الغَواني في القُصُور
لوْلا التَّنَقُّلُ ما ارْتقَتْ | دُرَرُ البُحُورِ إلى النُّحُور

وقال أحمد بن منير الطرابلسي :

ساهَمْتَ عِيسَكَ مُرَّ عَيْشِكَ قاعِدًا | أَفَلا فَلَيْتَ بِهِنَّ ناصِيَةَ الفَلا
سَفَهًا لِحِلْمِكَ إنْ رَضِيتَ بِمَشْرَبٍ | رَنِقٍ وَرِزْقُ اللهِ قَدْ مَلَأَ المَلا
لا تَحْسَبَنَّ ذَهابَ نَفْسِكَ مِيتَةً | ما المَوْتُ إلَّا أنْ تَعيشَ مُذَلَّلا
لِلْقَفْرِ هَبْها لا لِفَقْرٍ إنَّما | مَغْناكَ ما أغْناكَ أنْ تَتَوَسَّلا
لا تَرْضَ مِنْ دُنْياكَ ما أدْناكَ مِنْ | دَنَسٍ وكُنْ طَيْفًا جَلا ثُمَّ انجَلى
وَصِلِ الهَجِيرَ بِهَجْرِ قَوْمٍ كُلَّما | أمْطَرْتَهُمْ شَهْدًا جَنَوْا لَكَ حَنْظَلا

وقوله :

فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ دَارٍ تَذِلُّ بِهَا | لَوْ أنَّ حَصْبَاءَهَا دُرٌّ وَمَرْجَانُ

لرابأ : انجُ بنفسك النفيسة عن منزل الهوان وموقف الامتهان :

فَإِنَّكَ وَاجِدٌ أَرْضاً بِأَرْضٍ وَنَفْسُكَ لَا تَجِدْ نَفْساً سِوَاهَا

والذلّ بالضم والكسر : ضد العزّ والصعوبة به . يقال فلان ذلّ أو هان وصغر أمره ، ولقد أحسن من قال :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ذُلٍّ يُرَادُ بِهِ إِلّا الأَذَلَّانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
هٰذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

والحصباء : الحصى . والدرّ : كبار اللؤلؤ . والمرْجان : الخرز الأحمر المسمى اليوم « مَرْجان » . المعنى أن ذا النفس الأبيّة لايرضى بالاطمئنان بمكان يغشاها فيه الدون . قال الحريريّ :

لَا تَصْبُوَنَّ إِلَى وَطَنْ فِيهِ تُضَامُ وتُمْتَهَنْ
وَاُظْعَنْ عَنِ الدَّارِ الَّتِي تُعْلِي الوِهَادَ عَلَى القُنَنْ
وَاهْرُبْ إِلَى رُكْنٍ يَقِي وَلَوَ أَنَّهُ حِضْناً حَضَنْ

ولله دَرُّ القائل :

وإِذَا رَأَيْتُ فَتًى سَمَا مُتَرَقِّياً فِي شَامِخٍ مِنْ عِزِّهِ الْمُتَرَفِّعِ
قَالَتْ لِيَ النَّفْسُ الْعَرُوفُ بِقَدْرِهَا مَا كَانَ أَوْلَانِي بِهٰذَا الْمَوْضِعِ

هٰذان البيتان يحكيان حال إمام المسلمين في بدء أمره ، فإن نفسه رقته ، وهمته أعلته ، إلى أن أحلّاه من العلياء كل مكان ، كما قال عبد الله بن معاوية :

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَـا   يَوْماً عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وقوله :

طُفْتُ الْمَعَالِمَ مِنْ شَامٍ إِلى يَمَنٍ   وَمِنْ حِجَازٍ وَلَبَّتْنِي خُرَاسَانُ

المعالم والمعاهد : المنازل ، سمّيت معالم لأنها تجمع العالم ، والعالم الخلق كله أو ما حوى بطن الفلك . والشام : معروف ، سمي بهذا الاسم لأنه عن مشأمة القبلة ، أو لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا إليها أي تياسروا ، أو سمّي بسام بن نوح فإنه بالشين بالسريانية ، هكذا ذكره صاحب القاموس ، أو لأن أرضها شامات بيض وسود وحمر . واليمن : معروف ، وهو عن يمين القبلة من بلاد الغور . والحجاز : مكة والمدينة والطائف ومخاليفها ، كأنها حجزت بين نجد وتهامة . وخراسان : بلد عظيم من بلاد العجم ، وإنما ذكر هذه المواضع لأن كل موضع مباين لمقابله ، فالشام مباين لليمن ، والحجاز مباين لخراسان ، متباعد ما بين أطراف الأمكنة المذكورة . ثم ذكر أنه في تطوافه على هذه الأمكنة على تعاقب العصور والأزمنة

ما رأى مثل ممدوحيه الذين أشار إليهم بقوله :

فَمَا لَقِيتُ وَلَنْ أَلْقَى وَلَوْ بَلَغَتْ ... بِي مُنْتَهَى ٱلسَّدِّ هِمَّاتٌ ووِجْدَانُ

المراد بالسّدّ : هو ما بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج ، وذكره في القرآن يغني عن الكلام عليه ، لكن صاحب المعجم ذكر غرائب فيمن وراءه لسنا بصددها ، والطوّافون لعهدنا هذا ما اتصل به أحد منهم . وقوله : فما لقيت : أي في جولاني في هذه الأراض ما رأيت بعيني ولا سمعت بأذني مثلهم في شرفهم الشامخ ، ومجدهم الباذخ ، وذكرهم المستفيض ، وإحسانهم الطويل العريض . ثم أكّد النفي بقوله : ولن ألقى ، يعني مثلهم ولو بلغت بي منتهى السّدّ همة عالية وجدة وافية . ثم أخذ يذكر شيئاً من صفاتهم فقال :

مِثْلَ ٱلْجَحَاجِحَةِ ٱلْغُرِّ ٱلَّذِينَ سَمَوْا ... مَجْدًا تَقَاصَرَ عَنْ عَلْيَاهُ كِيوَانُ

الجحاجحة : جمع جَحْجاح وهو السيِّد . والغُرّ : جمع أغرّ وهو الأبيض من كل شيء ، الكريم الأفعال الواضحها والشريف . والسموّ : العلوّ والارتفاع والمجد الشرف والكرم . وكيوان : زحل من السبعة السيارة وفلكه في السماء السابعة قال الطغرائي :

وَإن عَلَانِيَ مَنْ دُونِي فَلَا عَجَبٌ   لِي أُسْوَةٌ بانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

والمعنى أن مجد هؤلاء المدوحين علا حتى تجاوز إلى ما فوق زُحَل ، ومنتهاه إن شاء الله إلى الجنة . ومعنى هذا البيت معنى بيت النابغة الجعدي حين أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته المشهورة ومنها :

بَلَغْنَا السَّمَا مَجْدًا وَجُودًا وَسُؤْدُدًا   وَإنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهَرَا

فقال صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى . قال : إلى الجنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله تعالى . فلما انتهى إلى قوله :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ   بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرا

قال له صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك ، فعاش مئة وثلاثين سنة أو ثمانين لم تسقط له ثنية .

وقوله :

أَلضَّارِبِي ٱلْكَبْشَ هَبْرًا وَٱلْقَنَا قِصَدٌ   وَٱلتَّارِكِي ٱللَّيْثَ يَمْشِي وَهْوَ مِذْعَانُ

الكَبْش : سيّد القوم وقائدهم ، يقال هذا كبش الكتيبة ، قال عمرو بن الإطنابة :

الضَّارِبِينَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ   ضَرْبَ المُهَجْهِجِ عَنْ حِيَاضِ الآبِلِ

والبيت من جملة أبيات حسنة أولها :

إنّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إذا انْتَدَوْا	بَدَأُوا بِحَقِّ اللهِ ثمَّ النَّائِلِ
الْمانِعِينَ مِنَ الخَنَا جارَاتِهِمْ	والْحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ
والْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ	وَالْبَاذِلِينَ عَطاءَهُمْ لِلسَّائِلِ
وَالْقَاتِلِينَ لَدَى الْوَغَى أقْرَانَهُمْ	إنَّ الْمَنِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ الْوائِلِ
وَالقَائِلِينَ فَلا يُعابُ كَلامُهُمْ	يَوْمَ الْمَقَامَةِ بالْقَضَاءِ الْفَاصِلِ
خُزْرٌ عُيُونُهُمُ إلَى أعْدَائِهِمْ	يَمْشُونَ مَشْيَ الأُسْدِ تَحْتَ الوَابِلِ
لَيْسُوا بِأَنْكَاسٍ وَلا مِيلٍ إذا	مَا الْحَرْبُ شُبَّتْ أشْعَلُوا بالشَّاعِلِ

والضّرب الهبر : هو الذي يلقي قطعة من اللحم . والقنا : الرّماح . وتقصّدها : تكسرها . يقال رمح قصد كـكتف متكسّر . والليث : هو الأسد . قال في « حياة الحيوان » : وله أكثر من خمسمائة اسم ، وهو أعظم مخلوقات الله جراءة وشهامة وشجاعة فيما ذكر أهل المعرفة . والإذعان : الانقياد والخضوع ، يقال : أذعن له : خضع وذلّ وأقر وأسرع في الطاعة .

وقوله :

وَالْفَارِجِي غُمَمَ اللّاجِي إذَا صَفِرَتْ | أَوْطَابُهُ وَاقْتَضَاهُ الرُّوحَ دَيَّانُ

الغم : الغم ، يقال فرج الله همه وغمه إذا كشفه وأزاله . وصفرت : خلت ، ومنه سمي الصفرية قوم من الخوارج لخلوهم من الدين . والوطب : أصله سقاء اللبن واستعير لخلو أمكنة اللاجي مما يحصل به له استقامة ، قالت امرأة من بني عامر :

فَإِنْ يَكُ ظَنّي صادِقاً وَهْوَ صادِقٌ ... بِكُمْ وَبِأَحْلامٍ لَكُمْ صَفِراتِ

أي خالية لا خير فيها .

تُمِدُّ فِيكُمْ جزرَ الْجُزُورِ رِماحُنا ... ويَكْمُنَّ بِالأَكْبادِ مُنْكَسِراتِ

وقبل هذين البيتين :

وَحَرْبٍ يَضِجُّ الْقَوْمُ مِنْ نَفَيانِها ... ضَجِيجَ الْجِمالِ الجِلَّةِ الدَّبِراتِ
سَيَتْرُكُها قَوْمٌ وَيَصْلَى بِحَرِّها ... بَنُو نِسْوَةٍ لِلثُّكْلِ مُصْطَبِراتِ

وقال حاتم :

مَتى ما يَجِئْ يَوْماً إِلَى الْمَالِ وَارِثي ... يَجِدْ جَمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلأَى ولا صَفْرِ
يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ العِنانِ وَصارِماً ... حُساماً إذا ما هُزَّ لَمْ يَرْضَ بِالهَبْرِ
وَأَسْمَرَ خَطِّيًّا كَأَنَّ كُعُوبَهُ ... نَوَى القَسْبِ قَدْ أُرْبِي ذِراعاً عَلَى الْعَشْرِ

قوله : لم يرض بالهبر ، يعني يتجاوز القطع إلى ما وراه . وقوله : واقتضاه الروح ديان ، الاقتضاء : المطالبة بلازم ، والمعنى أن هؤلاء الممدوحين يفرجون غم

اللاجئ إليهم بأموالهم ، ويدفعون عنه من يطالبهم في نفسه. المراد أنهم في عز ومنعة وكذلك من التجأ إليهم .

وقوله :

وَٱلصَّائِنِينَ عَن ٱلْفَحْشَا نُفُوسَهُمُ وَٱلْمُرْخِصِيهَا إِذَا ٱلْخَطِّيُّ أَثْمَانُ

صانه : حفظه . والفحشاء : ما يشتدّ قبحه من الذنوب ، وكل ما نهى الله عنه . والنفس : الروح وما به قوام الجسد . والرّخص : معروف . والخطّية : الرماح ، منسوبة إلى الخطّ بلد بالبحرين ، والثمن : ما يستحق به الثمن . المعنى أن هؤلاء الممدوحين يصونون أنفسهم عما لا يجمل ، ويرخصونها عند مقارعة الأقران ومحاولة الشجعان . قال البحتري :

وإن غَلَتِ الأرواح أرخصتَ سوْمَها بسوقٍ من الهيجاءِ أسودَ قاتمِ

وقال بعض بني قيس بن ثعلبة :

إنّا لَنُرْخِصُ يوْمَ الرَّوْعِ أنفُسَنا وَلَوْ نُسامُ بِهـا فِي الْأَمْنِ أَغْلَينا
بيضٌ مَفارِقُنا تَغْـلِي مَراجِلُنـا نَأْسُو بِأموالنا آثارَ أَيْدِينـا
إنّي لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أوائِلَهُمْ قِيلُ الْكُماةِ ألاَ أيْنَ الْمُحامُونا
إذا الْكُماةُ تَنَحَّوْا أَنْ يُصِيبَهُمُ حَدّ الظُّباتِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينـا

وَلاَ تَراهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ الْبُكاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونا
وَنَرْكَبُ الْكُرْهَ أَحْيانًا فَيَفْرُجُهُ عَنَّا الحِفاظُ وَأَسْيافٌ تُواتِينا

وقال خلف بن خليفة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْقَتْلَ غالٍ إِذا رَضُوا وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْقِفٍ رَخُصَ الْقَتْلُ

وقوله :

خُضْلُ الْمَواهِبِ أَمْجادٌ خَضارِمَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ عَلَى الْأَيَّامِ أَعْوانُ

الخضل بفتح الخاء وكسر الضاد : كل شيء ندٍ يترشّف نداه ، ويطلق على النعمة والرفاهية ، يقال : نعمة خضلة وعطاء خضل . والمواهب : جمع هبة ، العطية . والمجد: نهاية الشرف . والخضارمة : جمع خضرم وهو البحر الغطمطم والكثير من كل شيء ، والجواد والمعطاء والسيّد الحمول . بيض الوجوه : يعني أن أحسابهم وأنسابهم ووجوههم وأفعالهم منيرة . قال أبو الطمحان القيني :

أضاءتْ لهم أحسابهمْ ووجوههمْ دجى الليل حتى نظم الجزعَ ثاقبهُ

والعرب تمدح ببياض الوجه والمراد به مع ذلك بياض الأفعال . قال أبو طالب في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمالِ الْيَتامَى عِصْمَةٍ لِلْأَرامِلِ

وهو صلى الله عليه وسلم فوق مدح المادحين وثناء المثنين ، كيف وقد قال فيه رب العالمين : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وقال حسّان رضي الله تعالى عنه في آل جفنة :

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ   شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

وقوله :

غُرٌّ مَكَارِمُهُمْ حُمْرٌ صَوَارِمُهُمْ   خُضْرٌ مَرَاتِعُهُمْ لِلْفَضْلِ تِيجَانُ

الغرّة كما قدّمنا : البياض . والمكارم : معروفة ، ومن معانيها بذل النّدى وكفّ الأذى . حمرٌ صوارمهم : كناية عن كثرة نكايتهم لأعدائهم وقتلهم إياهم . حمر صوارمهم : يعني سيوفهم لا تزال محمرّة من دماء المخالفين . خضْرٌ مراتعهم : يحتمل هذا معنيين وهي أنهم لا يمتنع عليهم نزول مكان أرادوه ، مهما اخضرّ قطر رعوه قسرًا وعليه قول جرير :

إذا نَزَلَ السَّماءُ بدارِ قَوْمٍ   رَعَيْناهُ وإنْ كانُوا غِضَابَا

والسّماء في هذا : المطر . والمعنى الثاني أنهم إذا نزلوا أرضاً أنعموا على أهلها وأفاضوا عليهم سجال الكرم فهو كناية عن سعة الجود فكأنّ الأرض إذا نزلوا بها جادتها السّماء وتوالت عليها الأنواء فهم كما قيل :

لِلّهِ قَوْمٌ إذا حَلُّوا بِمَنْزِلَةٍ حَلَّ الرِّضَى وَيَسِيرُ الْجُودُ إنْ سارُوا
تَحْيَا بِهِمْ كُلُّ أَرْضٍ يَنْزِلُونَ بِها كَأَنَّهُمْ لِبِقاعِ الْأَرْضِ أَمْطارُ

وقال ابن حَيُّوس :

طالَ ما قُلْتُ لِلْمُسائِلِ عَنْكُمْ وَاعْتِمادِي هِدايَةُ الضُّلَّالِ
إِنْ تُرِدْ عِلْمَ حالِهِمْ عَنْ يَقِينٍ فَالْقَهُمْ في مَكارِمٍ أَوْ نِزالِ
تَلْقَ بِيضَ الْوُجُوهِ سُودَ مُثارِ الـ ـنَّقْعِ خُضْرَ الأَكنافِ حُمْرَ النِّصالِ

وقال الرُّسْتُمِيُّ في ابن عباد :

مِنَ النَّفَرِ الْعالِينَ فِي السِّلْمِ وَالْوَغَى وَأَهْلِ الْمَعالي وَالعَوالي وَآلِها
إذا نَزَلُوا اخْضَرَّ الرُّبَى مِنْ نُزُولِهِمْ وَإِنْ نازَلوا احْمَرَّ القَنا مِنْ نِزالِها

هذا والله الشعر الجيد ، والمديح الخالص ، والتاج الإكليل ، وهو لباس تجعله الملوك على مفارقها تتميز به . والمعنى أن هؤلاء الممدوحين مرتفعون على الملوك كارتفاع التيجان على رؤوسهم ، والبيت مشتمل على نوعين من البديع هما التقسيم والمقابلة . ثم خصص بعد التعميم فقال :

لٰكِنَّ أَوْراهُمُ زَنْدًا وَأَسْمَحَهُمْ كَفًّا وَأَشْجَعَهُمْ إِنْ جالَ أَقْرانُ

لـكن : ترد للاستدراك غالباً ، وهي أن تثبت لما بعدها حكما مخالفاً لما قبلها ، وقوله أوراهم زندًا : أي أطلبهم للأوتار ، وأدركهم للثأر ، وأخذهم في ذلك فهو كما قيل :

لا يُطْعَمُ النَّوْمَ إلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ   هَمٌّ يَكادُ حَشاهُ يَقْصِمُ الضِّلعـا

وأسمحهم كفًا : أي أجزلهم عطية ، وأتمهم أمنيّة ، وأوسعهم جودًا وأنجزهم موعودًا ، ومن أحسن ما يصلح أن يكون شاهدًا لهذه الكلمة وما قبلها قول البحتري :

سَمَاحاً وَبأْساً كالصَّوَاعِقِ فِي الْحَيَا   إِذا اجْتَمَعا فِي العَارِضِ الْمُتَرَاكِمِ

وقوله : وأشجعهم إنْ جال أقران : يعني أقدمهم في معامع الحروب ، وأثبتهم جَناناً إذا بلغت القلوبُ الحناجر . وهذا شاهده عيانه ، وظاهره برهانه ، فإنه أسبغ الله عليه ظله ، وأعلى في فلك السعادة محله ، خرج حين لا معين إلاّ الله ثم صدق عزمه فما زالت تسمو به نفسه وتعلو به همته إلى أن أدرك ما لم تدركه الجيوش الجحافل ، و بلغ بهمته ما لم تبلغه الملوك الأوائل ولسان حاله ينشد :

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاَمَا   وَعَلَّمَتْهُ الْـكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وصَـيَّرته فارساً هُماما

ولم تزل نفسه تتوق إلى عليّات المكارم ، وعزمه يسوقه إلى ركوب الخطوب

العظائم ، إلى أن أحلّاه حيث السُّهى والنعائم :

وَلا يَبْلُغُ الْعَلْياءَ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ   قَلِيلُ افْتِكارٍ في أُمُورِ الْعَواقِبِ

فأسفر صبح المسلمين به عن فجر صادق ، ونادى منادي الإسلام الآن ظهرت الحقائق ، ثم ذكره بعلمه المذكور واسمه المشهور فقال :

عَبْدُ الْعَزِيزِ الَّذِي نالَتْ بِهِ شَرَفًا   بَنُو نِزارٍ وَعَزَّتْ مِنْهُ قَحْطَانُ

وهو اسم مطابق مسمّاه ، ولفظ وافق التّوفيق لمعناه ، وبين هذا الاسم الشريف وبين أفعال المسمى به نسبة ظاهرة ، دلّت عليها حكمة باهرة ، وهي أن الله تعالى أعزّ به الإسلام والمسلمين ، وأذلّ بسطوته الكفرة المعاندين ، فهو أحق أن ينشد فيه :

اسْمٌ حَكاهُ الْمُسَمَّى في الفَعالِ فَقَدْ   حازَ الْعَلِيَّيْنِ مِنْ قَوْلٍ ومِنْ عَمَلِ

وقوله : نالت : أعطيت ورزقت . به شرفاً : مجداً وفخراً . بنو نزار بن معدّ ابن عدنان ، ونزار أبو العرب ما عدا القحطانيين ، فإنه ولد مضر وربيعة وإياد وأنمار ، والممدوح من ربيعة ، ويقال له ربيعة الفرس لأنه أعطى الخيل من ميراث أبيه . وقحطان : أبو اليمن كلها وإليه يجتمع نسبها ، ابن عابر بن شالخ بن

أرفخشد بن سام بن نوح . والمعنى أن ظهوره أعزّه الله سبب لعزّ العرب كلها نزاريها ويمنيها ، وهذا غاية الشرف .

وقوله :

مُقَدَّمٌ فِي الْمَعَالِي ذِكْرُهُ أَبَدًا كَمَا يُقَدَّمُ بِاسْمِ اللهِ عُنْوَانُ

العنوان : العلامة وما يبدأ به دالاً على ما بعده . والمعالي والعلا بمعنى واحد . والمعنى أن ذكره ومجده مقدم في كل فضيلة ، مبدوء به في كل خصلة جميلة ، كما أن اسم الله مبدوء به في كل أمر ذي بال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر » وقال الشّمّاخ :

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْد تَلَقَّاها عرابَةُ بِالْيَمِينِ

وقوله :

مَلْكٌ تَجَسَّدَ فِي أَثْنَاءِ بُرْدَتِهِ غَيْثٌ وَلَيْثٌ وَإِعْطَاءٌ وَحِرْمَانُ

هذه الخصال العزيزة النظير ، المعدومة المثيل ، لم تجتمع إلا في هـذا الرّجل الذي هو في هذا الزمان عين الكمال ، عديم الشبيه والمثال ، فقوله : تجسّد : أي تصوّر وتخلّق . في بردته : أي لباسه ، غيث للمعتفين والسائلين ، وليث هصور

للأعداء والمعاندين . وقوله : و إعطاء وحرمان : تذييل على ما قبله ، والمعنى أن الله صوّره من هذه الأفعال السامية والأخلاق الزاكية فجعله غيثاً للبلاد ، ورحمة للعباد ، ونـكالاً لأهل الفساد .

وقوله :

خَبِيئَةُ ٱللهِ فِي ذَا ٱلْوَقْتِ أَظْهَرَهَا وَلِلْمُهَيْمِنِ فِي تَأْخِيرِهَا شَانُ

أخبأه : أخفاه ، قال تعالى: (ألّا يسجدوا لله الذي يخرج الخَبْء في السّموات والأرض) ومنه : يا ما خبأنا للصائمين ، المعنى أن الله تعالى أخر وقته مع علمه السابق به و بما يكون على يديه وسببه من الظهور والعزّ للإسلام والمسلمين ، وادّخره رحمة لأهل هذا الزمان ، الذي عمّ فيه قبله العدوان كما ورد : « أمّتي كالغيث لا يدرى أوّله خير أم آخره » ولله الحكمة البالغة ، والإرادة التامّة في تأخير هذه الرحمة إلى آخر هذا الوقت ، ور بّك يخلق ما يشاء و يختار .

وقوله :

وَدَعْوَةٌ وَجَبَتْ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ أَمَا تَرَى عَمَّهُمْ أَمْنٌ وَإِيمَانُ

أي هـذه دعوة صالحة استجيبت للمسلمين ، إذ المسلمون قبله في شدّة وعناء ،

واختلاف أهواء ، وتسلّط أعداء ، أموالهم نهبة للغارات ، ودماؤهم بسيوف البغي مطلولة ملغاة ، فأشرق على المسلمين من ضياء نوره ما عمّهم عموم ضياء الصبح ، ووصل إليهم من عظيم رأفته ما اتّصل بأنفسهم اتّصال النسيم ، فأصبحوا وقد جمع الله به الأيادي بعد افتراقها ، وألّف به بين القلوب بعد تباغضها ، وأذهب عنهم الإحن والحسائد بعد توقد نيرانها ، بفضل الله ثم بيمن ولاية الذي لا يدرك بوصف ، ولا يُحدُّ بنعت ، فذلك قوله : أما ترى عمَّهم أمن و إيمان ، فالآن بحمد الله يخرج الضعيف السّبب ، المجهول النَّسَب ، يضرب في جزيرة العرب ، طولًا وعرضاً لا يخشى إلا الله تعالى . و إيمان: لا يحتاج إلى شرح لأنه معلوم بالضرورة . انظر هداية الله سبحانه بادية العرب من الشام إلى اليمن ، ومن الحجاز إلى ما وراء عمان ، ببركة رعاية هذا الرّجل المبارك مقدمه على المسلمين ، ونبذهم ما كانوا عليه قبله من علائق الشّرك ، وتحكيمهم كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد تحكيمهم الطاغوت . وقد قال بعض المؤرخين — وأظنه ابن خلدون — : إن العرب لا يجمع كلمتهم ولا يؤلف بين قلوبهم إلا صيغة دينية وهو أمر مشاهد كما كان في مبدأ انتشار هذه الدعوة المحمدية بسبب آبائه وأجداده عليهم من الله الرحمة والرضوان ، فإن الله هدى بهم أهل هذه الجزيرة ، ومن الله عليه بالهداية من غيرهم من الضلال و بصر بهم من العمى وجدّد بهم رسوم الدين الداثرة ، وأحيا بهم آثاره الغامرة .

وقوله :

حَاطَ ٱلرَّعِيَّةَ مِنْ بُصْرَى إِلَى عَدَنٍ وَمِنْ تِهَامَةَ حَتَّى ارْتَاحَ جَعْلَانُ

أي حفظها وصانها وحماها . وبصرى : بلد بالشام . وعدن : جزيرة باليمن معروفة . وتهامة : ما انحطّ من الغور غور الحجاز . وجعلان : بلدة شرقي عمان الأقصى . المعنى أن الله حمى به سكان هذه الأرض الطويلة العريضة حتى كان السائر في صحاريها ، والمسافر في براريها محفوظاً في نفسه ، آمناً على أثاثه وفلسه ، اللهم كما فضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمدّ لملكه أسباب التأييد والتمكين ، وعرّفه عوارف النّصر العزيز والفتح المبين ، واجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين ، وأرِه قرّة العين في نفسه وبنيه ، وملكه ورعيته يا أرحم الرّاحمين .

وقوله :

نَجَدَّدُوا ٱلشُّكْرَ لِلْمَوْلَى وَكُلُّهُمُ يَدْعُو لَهُ بِالْبَقَا مَا بَقْيَ إِنْسَانُ

يستقيم وزن هذا البيت بإسكان القاف في كلمة بقي وقد عمد الشاعر إلى هذه الضرورة في هذا البيت وفي غيره نسجاً على منوال بعض الشعراء القدامى كذلك الذي قال :

فيا عمرو كم من مهرة عربية من الناس قد بليت بوغد يقودها.

على إسكان اللام في كلمة بليت .

يعني أن الرعية لما استروحوا ريح الأمن والأمان ، واستنشقوا عَرْف الإحسان والإيمان ، جدّدوا الشكر للمولى تعالى وتقدس على هذه النعمة العظيمة ، والمنحة الجسيمة ، إذ أخرجه لهم في هـذا الزمان ، وكفّ بطلعته أهل البغي والعدوان ، وما أحسن ما قيل :

قَدْ قُلْتُ لِلنَّاسِ إِذْ قامُوا بِشُكْرِكُمْ ... اَلآنَ أَحْسَنْتُمْ أَنْ تَحْرُسُوا النِّعَما

والشكر هو صرف النعم في طاعة المنعم ، وهو أعم من الحمد من جهة المورد ، لأن مورده اللسان والجنان والأركان ، وقد سمعناهم يفدونه بالآباء والأمهات ، ولو قدروا لدفعوا عنه بالأسماع والأبصار والمهجات . فهو كما قيل :

حُبُّ الْوَرَى لَكَ بِالْإِجماعِ مَا أَحَدٌ ... إِلَّا وَأَنْتَ لَدَيْهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

مَا لَذَّةُ الْمُلْكِ إِلَّا الْحُبُّ يَكْسِبُهُ ... مِنْ قَلْبِ كُلِّ امْرِئٍ لِلْأَمْرِ يَأْتَمِرُ

لَمْ يَبْقَ لِلنَّاسِ عَتْبٌ مُذْ مَلَكْتَهُمُ ... عَلَى الزَّمانِ وَلَا ما عَنْهُ يُعْتَذَرُ

كَانُوا يَلُومُونَهُ وَالذَّنْبُ لَيْسَ لَهُ ... إِذْ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ نَفْعٌ وَلَا ضَرَرُ

حَتَّى مَلَكْتَ وَزَالَ الشَّرُّ وانْقَطَعَتْ ... عَنْهُ الْمَلَامَةُ وَالذَّنْبُ الَّذِي ذَكَرُوا

المراد بالزّمان أهل الزّمان ، قال تعالى : (واسئل القرية) يعني أهل القرية . وقال كثيّر عزّة :

فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمُسْلِمُونَ لَقَسَّمُوا ... لَكَ الشَّطْرَ مِنْ أَعْمارِهِمْ غَيْرَ نُدَّمِ

وقوله :

وَرُبَّ مُسْتَكْبِرٍ شُوسٍ خَلائِقُهُ صَعْبِ الشَّكِيمَةِ قَدْ أَعْمَاهُ طُغْيَانُ

الكبر والاستكبار : التجبّر والتعاظم . والأشوس : الذي ينظر بمؤخر عينيه من الزهو والتكبر . والصّعوبة : الشدّة والتعسر . والشكيمة : الأنفة والحديدة المعترضة في فم الفرس ، وفلان شديد الشكيمة أنف لا ينقاد وقد أعماه عن أنحاء رشده طغيانه . والطّغيان : مجاوزة الحدّ وعدم معرفة القدر . قال الله تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وله معان كثيرة .

وقوله :

تَرَكْتَهُ وَحْدَهُ يَمْشِي وَفِي يَدِهِ بَعْدَ الْمُهَنَّدِ عُكَّازٌ وَمِحْجَانُ

المهنّد : السّيف . والعكاز : عصاً في أحد طرفيها حديدة . قال المتنبي :

وَأَصْبَحَ يَجْتَابُ الْمُسُوحَ مَخَافَةً وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الدِّلَاصَ الْمُسَرَّدَا
وَيَمْشِي بِهِ الْعُكَّازُ فِي الدَّيْرِ تَائِباً وَمَا كَانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرَ أَجْرَدَا

والمحجان والمِحْجَن : عصاً معوجّ طرفها ، قال في القاموس : التحجّن : الاعوجاج . المعنى أنك تركت المتخلّق بصفات التكبّر والتعاظم يمشي وحده منقاداً

بعد إبائه ، مُذْعناً بعد صعوبته ، مستبدلًا بعد السّيف عصاً يتوكّأ عليها ماشياً وحده .

وقوله :

وَعَازِبٍ رُشْدُهُ إِذْ حَانَ مَصْرَعُهُ ‏ ‏ ‏ بِخَمْرَةِ الْجَهْلِ وَالْإِعْجَابِ سَكْرَانُ

العازب : البعيد ، والإبل تعزب أي تبعد عن أهلها ، وكان لرجلٍ إبل فباعها واشترى غنماً فعزبت الغنم وقال : إنما اشتريت الغَنَمَ حذار العازبة ؛ فذهبت مثلًا . قال أبو تمام :

إِلَيْكَ أَرَحْنا عازِبَ الشِّعْرِ بَعْدَ ما ‏ ‏ ‏ تَمَهَّلَ في رَوْضِ الْمعَانِي العَجائِبِ

هذه الاستعارة غريبة في بابها . والرشد : الاهتداء والاستقامة على طريق الحق، وعُزوبه : نفيه . إذ حان مصرعه : قرب هلاكه ودماره ، وكلّ من لم يوفق للرّشاد فهو حان مصرعه . والخمرة : معروفة . والسّكر : ضد الصحو ، ويطلق على تغيّر العقل وذهابه بالخمر . والجهل : ضد العلم ، وقد قيل إن خفض النفس أصل كل خير ، وتطلبها ونصبها لما لا تقدر عليه سبب كل شرّ كما أن الكلمات المخفوض أولها كلمات خير وهي الخصب والغنى والعلم ، والمنصوبات كلمات شرّ وهي الجدب والفقر والجهل ، وعليها بيت لا يحضرني ذكره . قوله : والإعجاب

والعجب : الزّهوّ والغرور والكبر ، والمراد به في هذا عبد الله بن الحسين الشريف فإنه يظهر على فلتات لسانه ، ما يدلّ على غروره بجمعه وأعوانه ، وتمنّيه نفسه الأماني ، ودون عُلَيّان القتاد والخرط :

مَا الْحَرْبُ إِلَّا لِقَوْمٍ يُعْرَفُونَ بِهِ   قَدْ مارَسُوا الْحَرْبَ حَتَّى هانَ مَعْظَمُهُ

فبعث إليه سيف الله المنتقم به من أعدائه ، المنفّذ لأوامره في عباده ، سريّة من رعيته ، ووهجاً من شُواظ عزمته ، فأباده الله ومن معه بسعده المجدود ، وحظّه المتقدم أمام الجنود، فولّى هارباً بنفسه إذا رأى غير شيء ظنّه رجلًا وقال : من لم يذق طرفاً منها فقد وألا :

وَمَهْما أَعادَتْهُ الْأَمانِي لِحَرْبِنا   نَصَبْنا لَهُ أَمْثالَها بِالْمُجَدَّدِ

وقوله :

أَمْطَرْتَهُ عَزَمَاتٍ لَوْ قَذَفْتَ بِهَا   صُمَّ الشَّوَامِخِ أَضْحَتْ وَهْيَ كُثْبَانُ

العزَمات : جمع عزمة والعزم هو الجدّ في الأمر والمضي فيه ، وأولو العزم من الرّسل : الذين عزموا على أمر الله فيما عهد إليهم وهم نوح وإبرهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين . قال الزّمخشري : أولو الجدّ والثبات والصبر . والقذف : الرّمي ، يقال قذف بالحجارة رمى بها . قال الله تعالى : (ويقذفون

بالغيب من مكان بعيد) . والأصمّ : الصلب . والشّامخ : المرتفع . والكثيب : الرّمل . وهذا إشارة إلى سرية بعثها الإمام ، أدام الله مجده ، إلى بعض أعدائه فكنى بها عن بعض عزماته ، و بالمطر عن الإرسال ، ولا يخفى ما بينهما من المناسبة لأن الكل مرمي به . والمعنى أن عزماته الظاهرة لو قذفت بها الجبال الصم الشوامخ لهدتها ، وهذا عند أهل البديع المبالغة أو الإغراق .

وقوله :

عَصَائِباً مِنْ بَنِي ٱلْإِسْلَامِ يَقْدُمُهُمْ   مِنْ جَدِّكَ ٱلْمُعْتَلِي بِالرُّعْبِ فُرْسَانُ

العصائب : جمع عصبة وهم الجماعات ، وقيل العصبة من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة إلى الأربعين ، قال النابغة :

إذا مَا أَرادَ الْغزْوَ حلّقَ فَوْقَهُ   عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

وقوله : من بني الإسلام : أي المنتسبين إليه حقيقة لا دعوى . وقوله : يقدمهم : يؤمّهم ويهديهم . من جدّك : أي حظّك . المعتلي : أي المرتفع المنصور إن شاء الله تعالى . بالرّعب : أي بجزع أعدائك وخوفهم منك . والرعب : جند الله الأعظم يمد به حزبه وينصر به جنده . قال صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ، والمعنى أن الملك هو القلب ، والرّعية الجسد

فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وبصدق نية الملك وحظه ينصر جنده ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وقوله :

وَيلُ أُمّهِ لَوْ أَتَاهُ ٱلْبَحْرُ مُلْتَطِماً آذِيُّهُ ٱلأُسْدُ وَٱلآجَامُ مُرَّانُهُ

ويل : كلمة عذاب ، والويل أيضاً حلول الشر ، وويل امّه : تستعمل للوقوع في الهلكة لأن الأمّ أجزع شيء على ولدها ، وربما استعملت للاستجادة ، ويقال أيضاً في المدح : هَوَتْ أمّه كما قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه :

هَوَتْ أُمُّهُ مَاذَا تَضَمَّنَ قَبْرُهُ مِنَ الْجُودِ وَالْمَعْرُوفِ حِينَ يُثِيبُ

هوَتْ أُمُّه مَا يَبْعَثُ الصُّبْحَ غادِياً وماذا يَرُدُّ اللَّيْلَ حِينَ يَؤُوبُ

والبحر : يعبّر به عن الشجاع والجواد الواسع الكرم ، قال المتنبي :

هو البحر غُصْ فيه إذا كان ساكناً على الدر واحذَرْهُ إذا كان مُزْبِدا

وقوله : ملتطماً، أي يضرب بعضه بعضاً . والآذي : الأمواج تقذف بالزّبَد . والآجام : جمع أجمة وهي الشجر الملتف وبها مساكن الأسود . والمرّان : الرّماح

الصلبة اللدنة . المعنى الهلاك له والويل لامّه لو نسأ الله القدر إلى أن يأتيه الضّرغام الخادر ، والبحر الزاخر الذي أمواجه الأسْد وغاباتهم الرماح .

وقوله :

لَأَصْبَحَ ٱلْغِرُّ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ   أَوْ شَاعَفَتْهُ قُبَيْلَ ٱلصُّبْحِ جِنَّانُ

الغرّ : الحدَث الذي لا خبرة له بالأمور ولا تجربة بالحروب . والعين : الشبحُ المرئي . والأثر : ما يدلّ عليه . والشعف والشعفة من القلب : رأسه عند معلق النياط ، والمشعوف : المجنون ومن أصيب شعفة قلبه بحب أو ذعر أو جنون . والجنّان : جمع جان ، قال ابن دراج الأندلسي القسطلي يمدح مخدومه ابن أبي عامر :

وَلَوْ بَصُرَتْ بِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزْمَتِي   وَجَرْسِي لِجِنَّانِ الفلاة سَمِيرِ

هذا البيت من جملة قصيدة من جيد الشعر منها :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثّواءَ هُوَ التَّوَى   وَأَنَّ بُيوتَ الْعـاجِزِينَ قُبُورُ

دَعِيـنِي أَرِدْ ماءَ الْمَفَاوِزِ آجِناً   إِلَى حَيْثُ ماءُ الْمَكْرُماتِ نَمِيرُ

فَإِنَّ خَطِيراتِ الْمَهالِكِ ضُمَّنٌ   لِرَاكِبِها أَنَّ الْجَزاءَ خَطِيرُ

ومنها :

وَلَمَّا تَدانَتْ لِلوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا   بِصَبْرِيَ مِنْها أَنَّةٌ وَزَفِيرُ

تُناشِدُني عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى   وَفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاء صَغِيرُ

إلى أن قال :

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقادَني   رَواحٌ لِتَدْآبِ السُّرى وَبُكُورُ
وَلَوْ شاهَدَتْني وَالْهَواجِرُ تَلْتَظِي   عَلَيَّ وَرَقْراقُ السَّرابِ يَمُورُ
أُسَلِّطُ حَرَّ الْهَاجِراتِ إذا سَطا   عَلَى حُرِّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ وهْيَ لَوافِحٌ   وَأَسْتَوْطِنُ الرَّمْضاءَ وهْيَ تَفُورُ
وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبانِ تَلَوُّنٌ   وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الْجَرِيءِ صَفِيرُ
لَبانَ لَها أنِّي مِنَ الْبَيْنِ جازِعٌ   وأنِّي عَلَى مَضِّ الْخُطُوبِ صَبُورُ
وَلَوْ بَصُرَتْ بِي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتِي   وَجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ
وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةَ فِي غَسَقِ الدُّجَى   وَلِلْأُسْدِ فِي غِيلِ الْغِياضِ زَئِيرُ

وهي طويلة ومديحها من فاخر المديح تركته خشية الإطالة . رجعنا إلى ما نحن بصدده ، المعنى لو قدر الله أن العدو يلبث إلى أن يصل إليه لاستأصل الله به عينه ومحا أثره ، وقطع دابره بمشيئة الله ، إذ من كان مع الله كان الله معه ، أو جُنَّ وسُلب العقل مما يرى من الجيش الصادم ، و يسمع من الهمهمة والزّمازم . الزمزمة : الصوت البعيد له دويٌّ وتتابع مثل صوت الرعد ، قال المتنبي :

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالغَرْبِ زَحْفُهُ   وَفِي أُذْنِ الْجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ

وقوله :

وَمَشْهَدٍ لَكَ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَوْفَ تَرَى   يُوفَى بِهِ لَكَ يَوْمَ ٱلْحَشْرِ مِيزَانُ

المشهد : المحضر . وقوله في الإسلام : أي في إقامة دين الإسلام . وسوف : كلمة تنفيس وتستعمل في الوعد والوعيد . وقوله ترى : تنظر . المعنى كم مقامٍ لك في الإسلام نصرته فيه سيرفع به يوم الحشر مقامك ، وترجح به يوم التغابن حسناتك ، يوم يغتبط المجاهدون ، و يندم المتكاسلون .

وقوله :

نَحَرْتَ هَدْيَكَ فِيهَا ٱلْمُشْرِكِينَ ضُحًى   فَافْخَرْ فَفَخْرُ سِوَاكَ ٱلْمَعْزُ وَٱلضَّانُ

النحر : معروف . والهدي : هو ما نحر لله يتقرب به إليه ، وأفضل ما تقرّب به المتقرّبون ، نحر أعداء الله وأعداء رسوله ، المضادين لأحكامه بأوضاع وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان ، قدّموها على أحكام الله وسمّوها « القانون المنيف » قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد وفّق الله هذا الإمام لنحر هؤلاء وأمثالهم . وقوله : فافخر ، فخر شكر لا تعاظم لأنه ولله الحمد من أناس فخرهم التواضع . وقوله : ففخر سواك المعز

والضأن : وهو يدل على كرم الخيم وسخاوة النفس ولكن شتان ما بينهما .

وقوله :

أَرْضَيْتَ آبَاءَكَ الْغُرَّ الْكِرَامَ بِمَا   جَدَّدْتَ مِنْ مَجْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَانُوا

الرضى : ضد السخط . والغرّ : قد تقدم الكلام عليه وكذلك الكرام والمجد . وقوله بانوا : أي مضوا ، يقال بانوا بَيْناً و بينونةً ، فارقوا . المعنى أن أفعالك التي هي غرة في جبين الدهر ، وحلية سابغة لأهل هذا العصر ، تسرّ آباءك الكرام في قبورهم ، وتشفي الإحن التي على أعدائهم في صدورهم .

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلا بِابْنٍ ذُرَى شَرَفٍ   كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

وقد ورد أن الأموات يسرّون بأفعال أولادهم وأقاربهم الصالحة ، قال أبو تمام :

لَوْ كَانَ يَأْمُلُ عَمْرو مِثْلَهُ وَلَدًا   مِنْ صُلْبِهِ لَمْ يَجِدْ لِلْمَوْتِ مِنْ أَلَمِ

وقد قيل إن الأولاد ثلاثة : سابق ولاحق وماحق ، فالسابق من خرج على مجد باسق لآبائه فمهده و زاده شرفاً ، واللاحق من له آباء كرام فمشى على مكارمهم وتبع آثارهم ، والماحق من خرج على مجد مؤثل لآبائه فمحقه بسوء أفعاله وآرائه .

وقوله :

نَبَّهْتَ ذِكْرًا تَوَارَى مِنْهُ حِينَ عَلَا ... لِلْمَارِقِينَ ضَبَابٌ فِيهِ دُخَّانُ

نبهت : أي أيقظت ، يقال نبهت النائم فتنبّه ، ونبه باسمه تنبيهاً نوّه . والذّكر بالضم والكسر : الصيت والثنا والشرف . وقوله : توارى منه : أي لا كله لأن مجدهم القديم ، وشرفهم الصميم ، قد سار مسير الريح في الأقطار ، وانتشر انتشار الشمس في رابعة النهار ، كيف وقد وعاه عن الأول الآخر ، وضمنه بطون التأريخ والدفاتر :

تَزُولُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَذِكْرُهُمْ ... مُنِيرٌ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ وَبَاقِيَا

و إنما توارى منه ما توارى في الدنيا لا في الدين ، ولا في الشرف الباذخ المتين ، وأفعال البارى تعالى وتقدس كلها لحكمة ظهرت للناس أو لم تظهر ، لكن الباطل لا يدال على الحق إدالة يضمحل الحق معها ، إنما أهل الحق يختبرون و يبتلون والعاقبة للمتقين . وقوله : ضباب : الضّباب بالفتح ندى يتصور له جسم رقيق والسحاب الرقيق . والدخان : معروف . المعنى أنك أيقظت ذكر آبائك الأمجاد ، وأجدادك الأجواد ، حين غشاه مثل الضباب الملتبس بالدخان وفيه دليل على عدم بقائه وسرعة اضمحلاله ، وقد اضمحل بحمد الله حتى كأن لم يكن .

وقوله :

نَجِئْتَ بِالسَّيْفِ وَالْقُرْآنِ مُعْتَزِماً تُمْضِي بِسَيْفِكَ مَا أَمْضَاهُ قُرْآنُ

أي دعوت الناس إلى أحكام القرآن وألزمتهم إياه بالسيف . وقوله : معتزماً : ذا عزمة صادقة وهمة لأوامر الله موافقة ، ولا شك أن من كان إمامه القرآن ، له الغلب في الأولى والمنقلب ، وكذلك من نفّذ أمر الله بسيفه إن لم يغن لسانه . قال الله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) . قال أبو تمام :

وَما هُوَ إِلَّا الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ تُمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ
فَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عالِمٍ وَهٰذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ
هُوَ الْحَقُّ إِنْ تَسْتَيْقِظُوا فِيهِ تَغْنَمُوا وَإِنْ تَغْفُلُوا فالسَّيْفُ لَيْسَ بِغَافِلِ

وقوله : معتزماً : أي عازماً على أمرك مجمعاً على رأيك كما قال أبو تمام أيضاً :

أَضْحَكْتَ مِنْهُمْ سِبَاعَ الْجَوِّ ضَاحِيَةً بَعْدَ الْعُبُوسِ وَأَبْكَيْتَ السُّيُوفَ دَمَا
مِن كُلِّ صَعْبِ الذُّرى مِنْ مُصْعَبٍ يَقِظٍ إِنْ حَلَّ مُتَّئِدًا أَوْ سارَ مُعْتَزِمَا

وقوله: تمضي : أي تنفذ بسيفك ما حكم به القرآن .

وَمَا الدِّينُ إِلَّا أَنْ تُقَامَ شَرِيعَةٌ وَتَأْمَنَ سُبْلٌ بَيْنَنَا وَشِعَابُ

وقوله :

حَتَّى انْجَلَى الظُّلْمُ وَالإِظْلامُ وَارْتَفَعَتْ   لِلدِّينِ فِي الأَرْضِ أَعْلامٌ وَأَرْكَانُ

حتى : حرف للغاية . انجلى : ارتفع وانزاح . والظلم : وضع الشيء في غير موضعه ثم استعمل لكل من غصب ما لا يستحقه ، وأكبر الظلم الشرك بالله تعالى . والظلمة والظلام ذهاب النور ، والإظلام الدخول فيه . وقوله : ارتفعت : أي علت . والدين هو الإسلام ، قال الله تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) . والأعلام : جمع عَلَم ، وهي الشعار . والأركان : الدعائم ، وهي الواجبات في الإسلام . المعنى أنك دعوت الناس إلى التزام أحكام القرآن ، ومن أبى ألزمته بالسيف إلى أن انجلى الظلم عن المسلمين في أبدانهم وأموالهم ، والإظلام الذي هو كناية عن عدم انتشارهم في طلب معاشهم ، وارتفعت شعائر الإسلام وقواعده . ثم أخذ يذكر بعض ما خصّ الله به الممدوح من الفضائل التي انفرد بها دون غيره ، وامتاز بها عمن سواه ، فقال :

دِينٌ وَدُنْيَا وَبَأْسٌ فِي الْوَغَى وَنَدًى   تَفِيضُ مِنْ كَفِّهِ بِالْجُودِ خُلْجَانُ

الدين في هذا : الطاعة والعبادة . والدنيا المحمودة هي ما أكسبت صاحبها

أجرًا جزيلاً في الآخرة وذكرًا جميلاً في الدنيا :

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا إذا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالإفْلاَسَ بِالرَّجُلِ

قوله : بأس : أي شجاعة و إقدام . والوغى : الجلبة والصوت ثم استعير لمعركة الحرب ومواقف الطعن والضرب . وقوله : وندًى : أي جود و إفضال ، والبأس والندى ركنا المجد . قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز المغربي :

وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ إلَّا عَنْ نَدًى وَوَغًى فَالْمَجْدُ أَجْمَعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْجُودِ

وقوله : تفيض من كفه بالجود خلجانُ : يقال فاض الماء يفيض فيضاً كثر وسال . والكفّ : اليد أو إلى الكوع ، والخلجان : جمع خليج شعبة من البحر ومنه قيل لبحر عمان والبحرين وما والاهما خليج فارس . قال أهل اللغة : الجود والسّخاء أفضل من الشجاعة ، لأن نفع الجود أعم والجواد محتاجون له الناس في كل حين والشجاع في محل دون محل ، لكن إذا اجتمعا فناهيك به شرفاً :

فَإِذا هُما اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلَّ مَكانِ

ولما ذكر بعض الفضائل التي خصّ الله بها هذا الرجل ، قال :

هٰذِي ٱلْمَكَارِمُ لَا مَارُويَ عَنْ هَرِمٍ   وَلَا ٱلَّذِي قِيلَ عَمَّنْ ضَمَّ غُمْدَانُ

قدم الكلام على المكارم . وهرم : هو هرم بن سنان المري ثم الغطفاني ممدوح زهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه :

مَتَى تُلاقِ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِماً   تَلْقَ السَّماحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقا(*)
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيا بِمَكْرُمَةٍ   أُفْقَ السَّماءِ لَنالَتْ كَفُّهُ الأُفُقا

وكان سنان أبو هرم سيّد غطفان وماتت أمه وهي حامل به وقالت : إذا أنَا متُّ فشقُّوا بطني فإنّ سيد غطفان فيه ، فلما ماتت شقوا بطنها واستخرجوا سناناً ، وفي بني سنان يقول زهير :

قَوْمٌ أبُوهُمْ سِنانٌ حِينَ تَنْسُبُهُمْ   طَابُوا وَطابَ مِنَ الْأَوْلادِ مَاوَلَدُوا
لَوْ كانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمسِ مِنْ كَرَمٍ   قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
جِنٌّ إذا فَزِعُوا إنْسٌ إذا أَمِنُوا   مُرَزَّؤُونَ بَهالِيلٌ إذا جُهِدُوا
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كانَ مِنْ نِعَمٍ   لَا يَنْزِعُ اللهُ عَنْهُمْ ما بِهِ حُسِدُوا

(*) روي هذا البيت في ديوان زهير طبعة دار الكتب المصرية هكذا :
من يلق يوماً على علاته هرماً   يلق السماحة منه والندى خلقا

وقال زهير :

وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... عَلَى مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ فَوَاضِلُهْ
أَخِي ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الْخَمْرُ مالَهُ ... وَلَـكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمالَ نائِلُهْ
تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أنْتَ سائِلُهْ

وقال زهير أيضاً :

إِلَيْكَ أَعْمَلْتُها فُتْلًا مَرافِقُها ... شَهْرَيْنِ يَجْهَضُ مِنْ أَرْحامِها الْعَلَقُ
حَتَّى دُفِعْنَ إلى حُلْوٍ شَمائِلُهُ ... كالْغَيْثِ يَنْبُتُ فِي آثارِهِ الْوَرَقُ
مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ بَرَى ذُو الْعَرْشِ فَضْلَهُمُ ... يُبْنَى لَهُمْ فِي جِنانِ الْخُلْدِ مُرْتَفَقُ
الْمُطْعِمِينَ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... والطَّيِّبِينَ ثِياباً كُلَّما عَرِقُوا
كأَنَّ آخِرَهُمْ فِي الْجُودِ أَوَّلُهُمْ ... إِنَّ الشَّمائِلَ وَالأَخْلاقَ تَتَّفِقُ
إنْ قامَرُوا قَمَرُوا أَوْ فاخَرُوا فَخَرُوا ... أَوْ ناضَلُوا نَضَلُوا أَوْ سابَقُوا سَبَقُوا
تَنافَسُ الأَرْضُ مَوْتاهُمْ إذا دُفِنُوا ... كما تَنافَسَ عِنْدَ الْباعَةِ الْوَرِقُ

وله فيه مدائح كثيرة مطربة ، وكان هرم آلى أي حلف إنه لا يسلم عليه زهير إلّا أعطاه غرّةَ عبد أو أمَة أو فرس ، فكان زهير يأتي المجلس فيه هرم فيقول : أنعموا صباحاً خلا هرم وخيركم تركت .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لبعض ولده : إن زهيرًا كان يمدحكم فيجيد ، قال : إنّا كنّا نعطيه فنجزل ، فقال : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

والذي ضمّ غمدان هو سيف بن ذي يزن الحميري ، وغُمدان بالضمّ : قصر باليمن عظيم البناء ، وقيل إنه بصنعاء اليمن ، وخبر سَيْف سياقه طويل نشير إلى أنموذج منه ، وذلك أن الحبشة ملكوا اليمن بعد ما هزموا ذَا نُواسٍ صاحب عبد الله التامر ، وخاضَ به فرسه البحر ، فساموا أهل اليمن الخسف ، وكان آخر مَنْ ملكهم من الحبشة مسروق بن أبرهة بعد أخيه يكسوم ، فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن حتى قدم على هرقل ملك الروم ، وطلب منه النُّصرة فلم يُشْبِهُ ، فخرج حتى أتى النّعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق ، فقال له النّعمان : إن لي على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك ، ثم خرج معه فأدخله على كسرى ، وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان لا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلّا برك ، فلما دخل سيف بن ذي يزن برك ، وقيل لما دخل طأطأ رأسه ، فقيل ذلك لسيف فقال : إنما فعلته لأنه يضيق عنه كل شيء ، ثم قال :

أيُّها الملك غلبتنا على بلادنا الأَغْرِبةُ ، فقال كسرى : أيُّ الأغربة الحبشة أم السِّند ؟ فقال : الحبشة ، فجئتك لتنصرني ، فقال : بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكُنْ لأورّط جيشاً من فارس بأرض العرب لا حاجة لي بذلك ، ثم أجازه

بعشرة آلاف درهم ، وكساه كسوة حسنة . فلما قبض ذلك جعل ينثر ذلك الورق فبلغ ذلك كسرى فقال : إنّ لهذا لشأناً ، ثم بعث إليه فقال : عمدت إلى حِباء الملك تنثره للنّاس فقال : ما أصنع بهذا ، ماجبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة ، فجمع كسرى مرازبته فقال : ماذا ترون في أمر هذا الرّجل . فقال قائل: أيها الملك إن في سجونك رجالًا قد حبستهم للقتال ، فلو أنك بعثتهم معه ، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم ، وإن ظفروا كان ملكاً أردته . فبعث كسرى مَن في سجونه ، وكانوا ثماني مئة رجل ، واستعمل عليهم رجلًا منهم يقال له « وهرز » فخرجوا في ثماني سفائن غرق اثنتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، فجمع سيف معهم مَن استطاع من قومه ، وقال لوهرز : رجلي مع رجلك حتى تموت جميعاً أو نظفر جميعاً ، فقال : أنصفت ، وخرج مسروق بن أبرهة فقال وهرز : أروني ملكهم ، فقالوا : ألا ترى رجلًا على الفيل ، عاقدًا تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ، قال : نعم ، قالوا : ذاك ملكهم ، قال : اتركوه ، فوقفوا طويلًا ، فقال : على ما هو . قالوا : قد تحوّل على الفرس ، قال : اتركوه ، فوقفوا طويلًا ، فقال : على ما هو ، قالوا : قد تحوّل على البغلة ، قال وهرز : على بنت الحمار، ذلّ وزال ملكه ، إني سأرميه فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أُوذنكم ، وإن رأيتم القوم قد استداروا به ولاثوا به فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم . فوترَ قوسَه وكانت فيما يزعُمون لا يوترها غيره ، ثم رماه فصكّ الياقوتة التي بين

عينيه ، فتغلغلت النُّشَّابة في رأسه حتى خرجت من قفاه ونكس عن دابّته ، وحملت عليهم الفرس ومن معهم فانهزموا وقتلوا وهربوا في كل وجه ، فذلك حين يقول الصلت أبو أُميَّة :

لِيَطْلُبِ الوِتْرَ أمْثالُ ابْنِ ذِي يَزَنٍ ... لَجَّجَ في البَحْرِ لِلأَعْداءِ أحْوالا[1]
أتَى هِرَقْلَ وَقَدْ شالَتْ نَعامَتُهُ ... فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ السُّؤْلَ الَّذِي سالا[2]
ثُمَّ انْثَنَى نَحْوَ كِسْرَى بَعْدَ تاسِعَةٍ ... مِنَ السِّنِينَ لَقَدْ أبْعَدْتَ إيغالا
حَتَّى أتَى بِبَنِي الأَحْرارِ يَقْدُمُهُمْ ... إنَّكَ عَمْرِي لَقَدْ أسْرَعْتَ إرْقالا[3]
أرْسَلْتَ أُسْداً عَلَى سُودِ الكِلابِ فَقَدْ ... أضْحَى شَرِيدُهُمُ في الأَرْضِ فُلَّالا[4]
فاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقاً ... في رَأْسِ غُمْدانَ داراً مِنْكَ مِحْلالا[5]
وَاشْرَبْ هَنِيئاً فَقَدْ شالَتْ نَعامَتُهُمْ ... وأسْبِلِ اليومَ في بُرْدَيْكَ إسْبالا[6]
تِلْكَ الْمَكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيبا بِماءٍ فَعادا بَعْدُ أبْوالا[7]

---

(١) لجج : خاض اللجة
(٢) سال : سأل .
(٣) ببنى الأحرار : الفرس . إرقالا : إسراعاً
(٤) فلالا : منهزماً .
(٥) مرتفقاً : متكئاً . محلالا : طيبة الحلول بها
(٦) شالت : ارتفعت : نعامته : باطن قدمه ، وهي كناية على الهلاك
(٧) قعبان : مثنى قعب : قدح يحلب فيه .

قال صاحب « العقد » : « أخبرنا نعيم بن حمّاد قال : أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفيان الثوري قال : قال ابن عبّاس رضي الله عنهما : لما ظفر سيف بن ذي يزَن بالحبشة ، وذلك بعدَ مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها تهنّئه وتمدحه ، فأتاه وفدُ قريش ، فيهم : عبد المطلب بن هاشم ، وأميّة ابن عبد شمس ، وأسد بن عبد العزّى ، وعبدُ الله بن جُدْعان ، فقدموا عليه وهو في قصره غُمدان ، فطلبوا الإذن عليه فأذن لهم ، فدخلوا فوجدوه متضمخاً بالعَنْبر والمسك في مَفْرِق رأسه ، وعليه بُرْدان أخضران ، قد اتّزرَ بأحدهما وارتدى بالآخر ، وسيفُه بين يديه ، والملوك عن يمينه وشماله ، فدنا عبد المطلب فاستأذن في الكلام ، فقال له : قل ، فقال : إن الله تعالى أيها الملك ، أحلّك مكاناً رفيعاً ، صَعْباً منيعاً ، باذِخاً شامخا ، وأنبتكَ مَنْبِتاً طابتْ أرُومته ، وعزّتْ جُرْثومته ، وَنبُلَ أصلُه ، وبَسَق فرْعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت أبيتَ اللعن ، رأسُ العرب ، وربيعُها الّذي به تُخْصِب ، وملكها الّذي له تنقاد ، وعَمودها الّذي عليه العِماد ، ومَعْقِلها الّذي يلجأ إليه العباد . سَلفُك خيرُ سَلف ، وأنت لنا منهم خيرُ خَلف ، ولن يَهْلِكَ مَنْ أنتَ خَلَفه ، ولن يخْملَ مَنْ أنت سَلفه ، نحن أيّها الملك أهل حَرَمِ الله وسَدَنة بيته ، أشْخَصنا إليك الّذي أنْهجَك لكَشْف الكرْبِ الّذي قد مَسّنا ، نحن وفد التّهنئة . قال : مَنْ أنت أيُّها المتكلم ؟ قال : أنا عبدُ المطلب بن هاشم ، قال ابنُ أختنا ؟ قال : نعم ، فأدْناه

وقرّبه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال : مرحباً وأهلاً ، وناقةً ورَحْلاً ، ومُستناخاً سَهْلاً ، ومَلِكاً رِبَحْلاً يُعْطِي عطاءً جَزْلاً ، فذهبت مثلاً . وكان أوّل ما تكلم به أن قال : قد سمع الملك مقالتكم ، وعَرَف قرابتكم ، وقبِلَ وسيلتكم ، فأهل الليل والنهار أنتم ، ولكم القُرْبى ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتُم . ثم استُنْهِضوا إلى دار الضّيافة والوفود ، وأجرى عليهم الأنزال ، فأقاموا شهراً ، ثم انتبه إليهم فدعا بعبد المطلب ، فخلا به وأدنى مجلسه وقال : يا عبد المطلب ، إني مُفْضٍ إليك من علمي أمراً لو غيرك كان لم أبُحْ له به ، ولكن رأيتك معدنه فأطلعتك عليه ، فليكن مَصُوناً حتى يأذن الله فيه ، فإنّ الله بالغ أمره . إنّي أجد في العلم المخزون ، والكتاب المكنون الّذي ادّخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا خَبَراً عظيماً ، وخَطَراً جسيماً ، فيه شرفُ الحياة ، وفضيلةُ الوفاة ، للنّاس كافة ، ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة . قال عبد المطلب : مِثلك أيُّها الملك مَنْ بَرّ وسرّ وبشّر ، ماهو فداك أهلُ الوَبر ، زُمَراً بعد زُمَر . قال ابن ذي يزن : إذا وُلِدَ مولودٌ بتِهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، إلى يوم القيامة . قال عبد المطلب : أبيتَ اللعن ، لقد أُبْتُ بخيرٍ ما آبَ به أحد ، فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيدَني في البشارة ما أزداد به سروراً . قال ابن ذي يزن : هذا حِينُه الّذي يولد فيه أو

ربحلا : عظيما .

قد وُلِد ، يموت أبوه وأُمُّه ، ويكفُلُه جدّه وعمّه ، وجدناه مراراً ، والله باعثه جهاراً وجاعلٌ له منّا أنصاراً ، يُعِزّ بهم أوليـاءه ، ويُذِلّ بهم أعداءه ، ويفتح كرائم الأرض ، ويضرب بهم النّاس عن عُرْض ، يُخمِد الأديان ، ويكسِرُ الأوثان ، ويعبُد الرحمن ، قوله حكم وفَصْل ، وأمره حَزْمٌ وعَدْل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويُبْطِله . فقال عبد المطلب : طالَ عمْرُك ، ودام مُلْكك ، وعلا جَدُّك ، وعزَّ فخرُك ، فهل الملِكُ يسرُّني بأن يوضِحَ فيه بعض الإيضاح . فقال ابن ذي يزن : والبيت ذي الطُّنُب ، والعلامات والنُّصُب ، إنك يا عبد المطلب لجدُّه من غير ما كذِب ، فخرَّ عبد المطّلب ساجداً ، فقال ابن ذي يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدْرك ، وعلا أمرُك ، فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك . قال عبد المطلب : أيُّها الملك : كان لي ابنٌ كنتُ له محبّاً وعليه حَدِباً مُشْفِقاً ، فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها آمنة بنت وَهْبٍ بن عبد مناف ، فجاءت بغلامٍ بين كتفيه شامة ، فيه كل ما ذكرتَ من علامة . مات أبوه وأُمّه ، وكفلْتُهُ أنا وعمّه . قال ابن ذي يزن : إن الّذي قلتُ لك كما قلتَ ، فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ، اطْوِ ما ذكرتُ لك دون هؤلاء الرَّهْط الّذي معك ، فإني لست آمن أن تدْخُلهم النَّفاسة ، من أن تكون لكم الرّياسة ، فيبغون لك الغوائل وينصِبون لك الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم . ولولا أني أعلم أن الموتَ مُجتاحي قبل مبْعَثِه ، لسِرتُ بخيْلي ورَجْلي

حتّى أصيرَ بيثْربَ دارِ مُهاجَرِه ، فإني أجد في الكتابِ النّاطق ، والعِلْم السّابق ، أنّ يَثْرب دارُ هِجْرته و بيت عَقِبه ، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير مني بمن معك . ثم أَمر لكل رجلٍ بعشرة أَعْبُد ، وعشر إماء سود ، وخمسة أرطال فضة ، وحُلَّتين من حُلل اليمن ، وكَرِش مملوءةٍ عنبرًا ، وأمر لعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك وقال : إذا حال الحَوْل فأنبِئْني بما يكون من أمره . فما حال الحَوْل حتّى مات ابن ذي يزن . فكان عبد المطلب يقول : يا معشر قريش ، لا يغْبِطْني رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نَفاد ، ولكن يَغْبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعَقِبي ، فإذا قالوا له : وما ذاك ؟ قال : سيظهر بعد حين » انتهى .

رجعنا إلى ما نحن بصدده من الكلام على البيت : المعنى أن ما أتاه الله هذا الرجل الّذي أقامه الله في هذا الزمن نصرة لدينه ، و إقامة لحدوده في عباده ، وما خصّه الله به من الحكم العدل ، و القول الفصل ، والكرم والإقدام ، حين لا وزر إلا الرّماح ، ولا ملجأ إلا حدود الصّفاح ، وطلبه لثأره بنفسه فوق ما ذكر به هٰذان الرجلان اللذان يضرب بهما المثل في الكرم والشهامة من زمن الجاهلية إلى زمننا هٰذا ، فهو أيّده الله بنصره كما قال سعد بن ناشب :

إذا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جانِبا
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَمْ يَرْضَ إلَّا قائِمَ السَّيْفِ صاحِبا

ثم رجع إلى خطاب رواحله ، فقال :

أَقُولُ لِلعِيسِ إِذْ تَلْوِي ذِفَارِيَهَا   لِإِلْفِهَا وَلَهَا فِي الدَّوِّ تَحْنَانُ

العِيس : الإبل البيض يخالط بياضها شُقْرة ، والذّفاري جمع ذِفْرى وذفرية وهي من جميع الحيوان من لدن القدم* إلى نصف القَذال ، أو العظم الشاخص خلف الأذن . قال كعب بن زهير :

مِنْ كلِّ نَضَّاخَةِ الذِفْرَى إذا عَرِقَتْ   عُرْضَتُها طامِسُ الأعلامِ مَجْهولُ

والإلْف : القرين المحبوب . والدّوّ : الفَلاة الواسعة . والتَّحْنان والحنين بمعنى واحد ، والتّحنان تطريب الصوت ، والحنين تحزينه ، قالت الخنساء :

فَمَا عَجُولٌ لَها بوٌّ تُطِيفُ بِهِ   لَهَا حَنِينانِ إِعْلانٌ وإِسْرارُ
لا تَسْمَنُ الدَّهْرَ فِي أرْضٍ وإنْ رَتَعَتْ   فَإِنَّما هِيَ تَحْنانٌ وَتَسْجارُ
يَوْمًا بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ فارَقَنِي   صَخْرٌ ولِلدَّهْرِ إِحْلاءٌ وَإِمْرارُ

المعنى أن رواحله إذا لوتْ رؤوسها لإلفها ، قال لها بلسان الحال أمامك ما هو خير لك من ورائك . قال أبو الطيّب :

---

* لعل الصواب : المقذ (بفتح الميم والقاف وتشديد الذال) وهو ما بين الأذنين من خلف ، ومنتهى منبت الشعر من مؤخر الرأس .

تَرَكَتْ دُخانَ الرِّمْثِ فِي أوْطانِها طَلَباً لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبَرا

ولم يزل الشعراء يعدون رواحلهم ، ويُرِيحون زواملهم بذكر مَنْ مدحوه ، وفضل مَن قصدوه كما قيل :

لَهـا بِذِكْرِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ وَقْتَ الْمَسِيرِ وَفِي أَعْقابِها حادِي

إذا اشْتَكَتْ مِنْ كَلالِ السَّيْرِ أوْعَدَها رُوحُ الْقُدُومِ فَتَحْيا عِنْدَ مِيعادِ

وقال أبو تمام :

إذا الْعِيسُ لاقَتْ بِي أَبَا دُلَفٍ فَقَدْ تَقَطَّعَ ما بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوائِبِ

هُنالِكَ تَلْقَى الْمَجْدَ حَيْثُ تَقَطَّعَتْ تَمائِمُهُ وَالْجُودُ مُرْخَى الذَّوائِبِ

وقوله :

رِدِي مِيَاهاً مِنَ الْمَعْرُوفِ طَامِيَةً نَبَاتُهَا التِّبْرُ لَا شِيحٌ وَسَعْدَانُ

الورود : معروف ، وكذا المياه لكنها استعارة هنا . والمعروف : الكرم والجود ، ولما كان فضله وإحسانه ، أدامه الله ، قد عمَّ أكثر الأقطار ، وتدفّق تدفُّقَ الأنهار ، جعله كالماء الطامي ، والعُباب المترامي ، يقال بحر طامٍ ، أي ممتلئ . والتِّبْر : الذَّهب والفضة . والشِّيح : نبت معروف ، قال في « التذكرة » يقطع البلغم . والسّعدان : أيضاً نبت معروف . المعنى أن ركابه إذا التفتتْ وحنّت شوقاً إلى إلفها ،

وتوقاً إلى مرباعها ومُصطافها ، قال لها رِدي ما نباتُه الذَّهب والفضة .

قال المتنبي :

مَعْـكُومَةً بِسِياطِ الْقَوْمِ تَضرِبُها   عَنْ مَنْبِتِ الْعُشْبِ تَبْغِي مَنْبِتَ الكَرَمِ

وقوله :

تَدُومُ مَا دُمْتَ لِلدُّنْيَا بَشاشَتُهَا   فَاُسْلَمْ فَأَنْتَ لِهٰذَا الْخَلْقِ عُمْرَانُ

أي تبقى وتثبت بدوامك وبقائك للدّنيا بشاشتها ، أي حسنها وجمالها وطلاقتها . وأصل البشاشة طلاقة الوجه وفرح الصديق ، فاستعمل بكل ما يحسن الشيء ويجمله ، قال جميل بن معمر :

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشاشَةٌ   وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

ومعنى صدر البيت أنك زينة الدّنيا وزهرتها ، وجمال العلياء وبهجتها ، كما قيل :

جَمالُ ذِي الأَرْضِ كانُوا فِي الْحَياةِ وَهُمْ   بَعْدَ الْمَماتِ جَمالُ الْكُتْبِ وَالسِّيَرِ

ثم انتقل من الإخبار إلى الدُّعاء فقال : فاسلم فأنت لهذا الخلق عمران ، أي فدم إن شاء الله سالماً في نفسك ، محفوظاً في ملكك ، موفّقاً في تدبيرك ، معافى في جميع أمورك :

وَلا تَزالُ لَكَ الأَزْمانُ مُمْتِعَةً   بِالآلِ وَالْحالِ وَالْعَلْياءِ وَالْعُمُرِ

وقوله : فأنت لهذا الخلق عمران ، أي سبب عمارة لهم في أديانهم وأنفسهم وأموالهم ، وهذا بحمد الله ظاهر ، فإن الله حقن به الدماء ، وسكن به الفتن ، وأذهب به ما كان بين المسلمين من الشّحناء والإحن ، لا زال ذكره باقياً ، وجدّه سامياً ، وأمدّه من النّصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق ، فضلًا من الله ونعمة ، والله حكيم عليم . ثم ختم نظمه بالصلاة على سيّد المرسلين ، وإمام المتّقين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، نبيّ الرّحمة ، وشفيع الأمة ، محمد بن عبد الله (ص) فقال :

٥٢ ثُمَّ ٱلصَّلَاةُ عَلَى ٱلْهَادِي ٱلَّذِي خَمَدَتْ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ لِلْفُرْسِ نِيرَانُ

الصّلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن غيرهم الدّعاء بخير . وقوله : الهادي أي الدّال على الله بالآيات الظاهرة ، والمعجزات الباهرة . قوله : الّذي خمدت : أي طفئت يوم مولده نار الفرس التي يعبدونها ولا يدعونها تطفأ . قال في « العقد » : « روى جرير بن حازم عن عِكْرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما كان ليلة وُلد النبي صلى الله عليه وسلم ، ارتجّ إيوانُ كِسْرى ، والإيوان المجلس العظيم ، فسقطت منه أرْبَعَ عشرةَ شُرْفةً ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أنّ بحيرةَ ساوةَ غاضتْ تلك

الليلة ، وكتب إليه صاحب السّماوة يخبره أن وادي السّماوة انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبَرِيَّة يخبره أن الماء لم يَجْرِ تلك الليلة في بحيرة طبرية ، وكتب صاحب فارس أن بيوت النار خَمَدَتْ تلك الليلة ولم تخمُد قبلَ ذلك بألف سنة . فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر فقال المُوبَذان[1] : أيُّها الملك ، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني ، قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلًا صِعاباً ، تقود خيلًا عِراباً ، قد اقتحمت دِجْلَةَ وانتشرتْ في بلادِنا . قال : رأيتَ عظيماً ، فما عندكَ في تأويلها . قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أَرْسِلْ إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلًا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحِدْثان . فبعَث إليه عبدَ المسيحِ بن نُفَيْلَةَ الغسّاني ، فلما قدِم عليه أخبره كسرى الخبر فقال : أيُّها الملك ، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن جَهِّزْني إلى خالٍ لي بالشّام يقال له سَطِيح ، قال : جَهِّزوه ، فلما قدِمَ إلى سطيح وجَدَه قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، وكلمه فلم يَرُدَّ عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصَمُّ أمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ الْيَمَنْ ... يا فَاصِلَ الْخُطَّةِ أعْيَتْ مَنْ ومَنْ
أَتاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ ... أبْيَضُ فَضْفَاضُ الرِّداءِ وَالسَّدَنْ[2]

(١) الموبذان : فقيه الفرس وحاكم المجوس .
(٢) السدن : الستر .

رَسُولُ قَيْلِ الْعُجْمِ يَهْوِي لِلْوَثَنْ لا يَرْهَبُ الْوَعْدَ ولا رَيْبَ الزَّمَنْ

فرفع رأسه إليه وقال : عبد المسيح ، على جمل مُشِيح ، إلى سَطيح ، وقد أوْفى على الضَّريح ، بعثك ملكُ بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخُمود النّيران ، ورؤيا الموبَذان ، رأى إبلاً صِعاباً ، تقود خيلاً عِراباً ، وقد اقتحمتْ الواد ، وانتشرتْ في البلاد ، يا عبدَ المسيح إذا ظهرت التِّلاوة ، وغاض[1] ماء السماوة ، وظهر صاحب الهِراوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يَمْلِك منهم ملوك وملِكات عدد سقوط الشُّرفات ، وكل ما هو آت آت . ثم قال :

إنْ كانَ مُلكُ بَني ساسانَ أفْرَطَهُمْ فَإِنَّ ذا الدَّهْرَ أطْوارٌ دَهارِيرُ
مِنْهُمْ بَنُو الصَّرْحِ بَهْرامٌ وإخْوَتُهُ والْهُرْمُزان وسَابُورٌ وسَابُورُ
فَرُبَّما أصْبَحُوا مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةٍ تَهابُ صَوْتَهُمُ الأُسْدُ الأَهاصِيرُ
حَثُّوا الْمَطِيَّ وجَدُّوا فِي رِحالِهِمُ فَما يَقُومُ لَهُمْ سَرْجٌ ولا كُورُ
والنَّاسُ أوْلادُ عَلّاتٍ فَمَنْ عَلِمُوا أنْ قَدْ أقَلَّ فَمَحْقُورٌ ومَهْجُورُ[2]
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَقْرُونانِ فِي قَرَنٍ فَالْخَيْرُ مُتَّبَعٌ والشَّرُّ مَحْذُورُ

ثم أتى كسرى فأخبره ، فغمَّه ذلك ثم تعزّى فقال : إلى أن يَمْلِكَ منا

---

(١) في رواية : وفاض وادي السماوة .
(٢) أولاد علات : أولاد أمهات شتى من أب واحد .

أربعة عشر ملكاً يدور الزّمان. فهلكوا كلّهم في أربعين سنة . »

وقوله :

وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ   خَضْباً تَمِيدُ بِهَا فِي الدَّوْحِ أَغْصَانُ

آل الرّسول صلى الله عليه وسلم هم أتباعه على ملّته وعترته ، الطّيبونَ الطّاهرون الذين أَذهب الله عنهم الرِّجْس ، وطهّرهم تطهيرًا . والصّحابي هو من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ولو لحظة ومات على ذلك . وقوله : ما ناحت مطوقة خضباً تميد بها في الدوح أغصان ، أي صلاة دائمة متّصلة ما ناحت حمامة . وقوله : خضباً : إشارة إلى الخلقة التي أودع الله من الحمرة في رجليها . ولما ذكر الحمام ، في ختام الكلام ، وجب أن نذكر شيئاً مما قاله الشعراء فيه ، فإنهم أكثروا القول على اختلاف مقاصدهم ، وتبايُن مذاهبهم ، فالخليُّ يقول غنّى ، والشّجيّ يقول ناح ، كما قال المنازي :

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنا بِشَجْوٍ   إذا أصْغَى لَهُ رَكْبٌ تَلاحَى
تَعَرَّضَ لِلْخَلِيِّ فَقالَ غَنَّى   وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقالَ نَاحَا

ومن أحسن ما سمعت فيه قول حميد بن ثور :

وما هاجَ هٰذا الشَّوْقَ إلّا حَمامةٌ   دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتندُّما
إذا شِئْتُ غَنَّتْني بِأَجزاعِ بِيشَةٍ   أوِ النَّخْلِ مِنْ تَثْلِيثَ أوْ من يَبَمْبَما

مُطَوَّقَةٌ خَضْباءُ تَسْجَعُ كُلَّما دَنا الصَّيْفُ وانْزاحَ الرَّبيعُ وأنْجَما
مِنَ الْوُرْقِ حَمَّاءُ الْعِلاطَيْنِ باكَرَتْ عَسيبَ إِشاءٍ مَطْلَعَ الشَّمْسِ مَنْسِما
إذا زَعْزَعَتْهُ الرِّيحُ أوْ لَعِبَتْ بِهِ أَرَنَّتْ عَلَيْهِ مائِلاً ومُقَوَّما
تُنادِي حَمامَ الْجَلْهَتَيْنِ وتَرْعَوي إلى ابْنِ ثَلاثٍ بَيْنَ عُودَيْنِ أعْجَما
مُطَوَّقِ طَوْقٍ لَمْ يَكُنْ عَنْ تَميمَةٍ ولا ضَرْبِ صَوَّاغٍ بِكَفَّيْهِ دِرْهَما
تَقَيَّضَ عَنْهُ غِرْقِئُ الْبيضِ واكْتَسى أنابيبَ مِنْ مُسْتَعْجِلِ الرِّيشِ أقْتَما
يَمُدُّ إِلَيْها خَشْيَةَ الْمَوْتِ جيدَهُ كَمَدِّكَ بِالْكَفِّ الْبَرِيَّ الْمُقَوَّما
فَلَمّا اكْتَسى الرِّيشَ السُّخامَ ولَمْ يَجِدْ لَها مَعَهُ في باحَةِ الْعُشِّ مَجْثَما
أُتيحَ لَها صَقْرٌ مُنيفٌ فَلَمْ يَدَعْ لَها وَلَدًا إِلّا رِماماً وأَعْظُما
فَأَوْقَتْ عَلى غُصْنٍ ضَحِيًّا فَلَمْ تَدَعْ لِباكِيَةٍ في شَجْوِها مُتَلَوَّما
فَهاجَ حَمامَ الْجَلْهَتَيْنِ نُواحُها كما هَيَّجَتْ ثَكْلى عَلى الْمَوْتِ مَأْتَما
عَجِبْتُ لَها أنّى يَكونُ بُكاؤُها فَصيحاً ولَمْ تَفْغَرْ لِمَنْطِقِها فَمَا
فَلَمْ أَرَ مَحْزُوناً لَهُ مِثْلُ صَوْتِها أَحَرَّ وأَنْكى في الْفُؤادِ وأَكْلَما
ولَمْ أَرَ مِثْلي شاقَهُ صَوْتُ مِثْلِها ولا عَرَبِيًّا شاقَهُ صَوْتُ أَعْجَما

واجتاز عبد الله بن طاهر بباب الطّاق ، وهي محلة كبيرة ببغداد بالجانب

الشرقي ، فرأى قُمْرِيّةً تُنوح ، فأمر بشرائها وإطلاقها ، فامتنع صاحبها بأن يبيعها بأقل من خمسمائة درهم ، فاشتراها بذلك وأطلقها وأنشد :

ناحَتْ مُطوَّقَةٌ ببابِ الطّاقِ ... فجَرَتْ سَوابِقُ دَمْعِيَ المُهَراقِ
كانَتْ تُغَرِّدُ بالأراكِ ورُبَّما ... كانَتْ تُغَرِّدُ في فُروعِ السّاقِ
فرَمى الفِراقُ بها العِراقَ فأَصْبَحَتْ ... بَعْدَ الأَراكِ تَنُوحُ في الأسْواقِ
فُجِعَتْ بأَفْرُخِها فَأَسْبَلَ دَمْعُها ... إنَّ الدُّموعَ تبُوحُ بالْمُشْتاقِ
تَعِس الْفِراقُ وَبُتَّ حَبْلُ وَتينِه ... وَسَقاهُ مِنْ سُمِّ الأَساوِدِ ساقِي
ماذَا أرَادَ بقَصْدِهِ قُمْرِيَّةً ... لَمْ تَدْرِ ما بَغْدادُ في الآفاقِ
بِي مِثْلُ ما بِكِ يا حَمامَةُ فاسْأَلِي ... مَنْ فكَّ أسْرَكِ أنْ يَحُلَّ وِثاقِي*

*) روى ياقوت هذه القصة والأبيات في « معجم البلدان » (ج ١ ص ٤٤٥ – طبعة أوربا – في كلامه على باب الطاق) ثم قال : « وقد روي أن صاحب القصة في إطلاق القمرية هو اليمان بن أبي اليمان البندنيجي الشاعر الضرير مصنف كتاب « التقفية » وقد ذكرته في كتاب « معجم الأدباء » .

هذا وفي « نثار الأزهار » لابن منظور وبعض كتب الأدب تنسب هذه القصيدة للمنازي البندنيجي الشاعر وتروى على هذه الصورة :

ناحت مطوقة ببـاب الطـاق ... فجرت سوابق دمعي المهراق
حنت إلى أرض الحجاز بحرقة ... تشجي فؤاد الهائم المشـتاق
كانت تفرخ في الأراك وربما ... كانت تفرخ في فروع الساق
تعس الفراق وجذ حبل وتينه ... وسقاه من سم الأساود ساق
يا ويحـه ما باله قمرية ... لم تدر ما بغداد في الآفاق

الملك عبد العزيز

لبولس سلامه

«جدَّةَ» الأمسِ قلعة النيرانِ　　سَلّمي سلّمي على السلطانِ
أطلقي هذه المدافعَ أفواهاً　　يواكبنَ فرحةَ المهرجان
مرسلاتٍ مع الهزيم بديلًا　　من سيولِ النيران سيلَ التهاني
لا يُطيقُ السلطانُ سمعَ غناءٍ　　وأغاريد مِزْهرٍ وقِيان
أطربيهِ بمدفعٍ وهديرٍ　　يتمادى على صهيل الحصان
للبطولاتِ شرعةٌ في بنيها　　تتعدّى شجاعةً في الجنان
وسَمْها يطبعُ الفؤادَ، وألواحَ التراقي، والذوقَ في الآذان
هوذا جاءكِ الغضنفرُ، حاطَتْهُ حِرابُ المشاةِ والفرسان
وتبارَتْ قناصلُ الغرب في زفِّ التهاني، وعاطر الشكران
حمدوه على الحصارِ ولولا　　حلمُه خضَّبَ النجيعُ الموانِي

• • •

سرواتُ الحجاز خفُّوا اليه　　وعيونُ الأشراف والأعيان

نحن أهلَ البلاد قالوا وإنّا بضعةٌ من تراب هذا المكان
نحن عنوانُها وحقّ لنا القولُ، فكلّ الكتاب في العنوان
ليس للمسلمين ممّن عدانا غيرُ رأيٍ، ورأينا رأيان
حقٌّ من وحّد الإلهَ، وحقٌّ الحبِّ بين الأوطان والسكّان
«صاحبُ البيت بالذي فيه أدرى» هبْ لنا جرأةَ النهى واللسان
قال هاتوا ولا تهابوا مقامي قد كُفيتم تخوّفَ العُبدان
لكمُ الرأيُ كالشعاع صُراحاً لكم اللهُ لا تهابوا مكاني
نحن في ظلّ بيتهِ فاصدُقوني واتّقوا من يراكُمُ ويراني
لا أرى بينكم خؤوناً ولا نِكساً، له في مقالِه وجهان

. . .

«مُدَّ عبدَ العزيز كفّاً نبايعْ أنت أولى الورى بهذا الشان»
منذ مالَ الإسلامُ عن ذِروتيهِ[1] ما رأى مثلَ وجهكَ المسجدان
عادلاً صارماً، نبيلاً، حليماً عُمَريَّ[2] الحسام والإيمان
يا مليكَ الحجازِ مُدَّ يميناً وَلْيُشَعْشِعْ في عيدكَ الفرقدان
ينسجُ البدرُ حولَ عرشك وشياً وذُكاءُ تقرُّ في الصولجان
لا تُقاسُ العروشُ بالجيش مجراً والنُضارِ الزخّار والبلدان
لِوُكورِ النسورِ هالةُ مجدٍ وهي بعضُ الصُدوعِ في الصوّان

---

١ ذروتيه اي ذروتي الدين والدنيا. والمسجدان: مكة والمدينة. ٢ عمَريّ الحسام في النسبة الى عمر الفاروق.

أو عِشاشٌ فوق الشِعاف تَدلَّتْ كالمصابيح من جِباه الرِعان [1]

هالةٌ من كرامةٍ لا تراها في مَراح الأنعام والغزلان

حسبكَ اليومَ يا مُتوَّجَ نجدٍ أن يُباهي بتاجك القطران

في حِماكَ المهدُ الذي مَلأَ الدنيا، فعاد الزمانُ غيرَ الزمان

في حِماكَ المُقدَّساتُ التي باهتْ بها أرضُنا، جميعَ المغاني

في حِماكَ المصرُ الذي شغلَ الكونَ، ومجدُ الإسلام، والحَرَمان

سِرْ بنا سيرةَ الصَحابةِ حُفَّاظِ الأحاديث شُهَّدِ القرآن

الأُلى واكَبُوا نزول اللآلي واستضاءتْ أيّامُهم بالجُمان

فترانا مُبايعيكَ على نهج القُدامى، وحُرمةِ الفُرقان

عند «باب الصَفا» من المسجد الطُهر، عقيب الصلاة، بعد الأذان [2]

تحت هذي الشمسِ الشهيدةِ، لا قصرٌ، ولا زخرفٌ وحسنُ مَبان

إنَّ هذا الفُسطاطَ، وهْو من الشَعْرِ، لأسْنى من روعة الإيوان [3]

لَنرى في عبائِكَ الصوف تَبلًا وبهاءً في الذيل والأردان

لم يُمتَّعْ بمثلها «أزدشيرٌ» والأعزّونَ من بني ساسان

أيُّ تاجٍ يبذُّ «شَملَتكَ» البيضاءَ، يومَ الفَخارُ بالتيجان [4]

مفرقَ الراشدين زانتْ، وزانتْ هامَ آل العبَّاس في بغداد

• • •

١ شعاف الجبال : رؤوسها . والرعان : الجبال الطويلة . ٢ بعد صلاة الجمعة في ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٤ يناير سنة ١٩٣٦ اجتمع الناس في المكان المُمدّ للحفلة عند باب الصفا من المسجد الحرام، وتمّت المبايعة وكان المشهد عربياً صافياً اي بسيطاً ديمقراطياً .

٣ إيوان كسرى المشهور . ٤ نستعمل الشملة بمعنى الكوفية .

قبل البَيْعَةَ المليـكُ فَردَّتْ آيةَ الشكر غيمةٌ من دُخان
بَعثتها مَدافِعٌ هاتفـاتٌ[1] بلِسانِ الجمـاد والإنسان
طاف حولَ البيتِ العَتيقِ وصلَّى حيث صلَّتْ كواكبُ الأزمان
منذ نادى الى الصلاة «بلالٌ»[2] واشرأبَّتْ مسامعُ الأكوان
نبأ ذاع في البسيطة ذَيْعَ الفكر،[3] جاب الدنيـا بضع ثوان
خـبرٌ كان للمَشارق بشرى ولأهل الغروب رجعَ أغان
دُولُ الغرب أيَّدتْ عرشَ مَلْكٍ صَفَّقَتْ في ظـلاله الرايتان
فتآختْ قبائـلٌ وبطونٌ وتنادى للفرحـة الجاران
وكأنَّ الحجازَ صنوٌ لنجدٍ فهُما منـذ كُوِّنا توأمان
مَرَجَ الله بالأُخوَّة بحرينِ، بظلِّ المليـك لا يبغيان

• • •

يا سعودُ الكبيرُ نَمْ في أمان كلُّ هذي الرؤوس من عدنان
لا يُغيرَنَّكَ المليـكُ «أبوتركي»، غـدا أوَّلًا فصرت الثاني[4]
شادَ عرشاً من بعد ما انتثر العرشُ، كما حُطِّمَتْ عِتاقُ الأواني
لَمَّ أجزاءه بحـدِّ حسامٍ وحمى عِزَّه برأس السنان
وبِخُلْقٍ دعا القلوبَ فلبَّتْ كدُعـاء الغـدير للعطشان

---

١ إشارة الى ان قلاع مكة أطلقت مئـة طلقة من مدافعها ابتهاجاً بالمبايعة . ٢ بلال الحبشي مؤذّن النبي وهو أول من رفع صوته بالأذان . ٣ نبأ مبايعة الملك وقـد اعترفت به أمم دول الغرب .
٤ اشارة الى سعود الكبير الذي احتلّ الحجاز

مَن رآه في قصرِه راءَ شهماً   فائِضَ الجودِ والحِجى والحَنان

وَهوَ في هيئة الرعيَّة لولا   هيبةٌ في الضراغم الرعيان

وعيونٌ اليه من كلِّ صوب   كالصحارى الى السحاب رَوان

وهْو فيهم «عبدُ العزيز» «أبو تركي» «الطويلُ العُمرِ» الرحيبُ الجفان [1]

يحسبون الألقابَ نفلاً كنفلِ الكحلِ في هُدْبَةِ العيون الحسان

أو مَصابيحَ تصدُفُ العينُ عنها   إذ يكون النهارُ في الرَيعان

ألِفوه خلفَ العَجاجةِ سيفاً   عارياً من قِرابه والدهان

فهْو فيهم عبدُ العزيز مليكاً   مثلُ عبدِ العزيز في المعمعان

فهناك الليثُ المُوكَّلُ بالنصر،   يمدُّ السماط للغربان

وهنا صَغَّرَ «البَرامكَ» جودٌ   أين منه مآدبُ النعمان

ما ابنُ ماء السماء؟ ما جودُ مَعْنٍ؟   ما حُماةُ «البريص» من غسَّان

كَرَمُ الأَوَّلينَ ظُنَّ أساطيرَ   ومَلهىً للسامر الندمان

فاذا بالمليك، بابن سعودٍ   يتعدَّى معالمَ البرهان

ما الأساطيرُ ما سمعتَ ولكن   هي ما وثَّقَت شهود العيان

من سخا بالحياة، عن غير يأسٍ   عارضاً صدرهُ على الأقران

في زمان الرصاص، والمدفع الرشَّاش يهمي باللاهب الهتَّان

---

[1] الفريق الاكبر من سكان الجزيرة ولاسيما البدو او القبائل الرُحَّل لا يعرفون الألقاب الشائعة في الاقطار الاخرى فهم ديموقراطيون بفطرتهم، يدعون بعضهم بأسمائهم المجردة ويخاطبون ملوكهم وامراءهم باسمائهم وألقابهم العادية، فاصغر البدو يخاطب الملك بيا عبد العزيز، أو يا أبا تركي، أو يا طويل العمر. والملك نفسه قلَّما يعبأ بالالقاب.

لا يرى في السخاء غيرَ ارتياض ؟ وانفراجٍ عن حافزٍ نفساني
لذّةُ السامعِ الأغاريد أدنى من سرور المغرّد الكروان

...

بُورِكَ المُنصفُ الذي وحّدَ العدلَ ، فمدّ التوحيد للميزان
واحدٌ عنده القياسُ فما في كفّةِ القِسْطِ عنده وزنان
شرف الحقِّ فوق كل شريفٍ لا يدانيه في السموِّ مُدان
فوق عبد العزيز فهو قمينٌ إنْ هفا أن يقول : هذا بياني
أنا تحت الشرع الشريف ولكن فوقَ كسرى العالي أنوشروان[1]
أنا لو جئت فريةً لتلظّى وهجُها في أضالعي فكواني
بين جنبيَّ زاجرٌ لا يُداري بين جنبيَّ حاكمي وجداني
فهو خصمي وشاهدي ونذيري وصديقي وناصحي وكياني

...

يا ابن عبد الرحمن عدلكَ أصفى من رفيف الأريج في البيلسان
فوحُهُ شاعَ كالضياء على الصحوِ ، ودفق العبير في نيسان
جاوز المُدْنَ للقفار الخوالي واستوى عَرفُه على الكُثبان
أنت فيها رفيق كُلِّ وحيدٍ جاز ما بين « جدّةٍ » و « عُمان »
بين وادي « الدّواسر » الموحش القفر ، وبين « النفودِ » « فالصمّان »

١ أنوشروان الملقب بالعادل .

بين ثغرٍ «لفارسٍ» حضنَ الدُرِّ، وبحرٍ كَنَّوهُ بالأرجواني[1]
ليس بعد الإله إلَّا خيالٌ منك، يحمي قوافل الركبان.
يرهبُ الغادرون بطشَ مليكٍ ساهرٍ في منامه يقظان
وعلى شعبه له ألف عينٍ تتولّى صيانةَ البستان
عبقريٌّ الملوك من يتجلّى وهو فذٌّ، في سائر الأعوان
يعكس الضوءَ ذاتَهُ في المرايا واحداً، رغم كثرة الألوان
أنكر الغربُ قسوةً لابن «جلوي» كيف يُنهي بقطع كفِّ الجاني
قسوةٌ؟ وهي رحمةٌ لو تأمَّلتَ، وعين النهى، ودربُ الأمان
إنَّ داء السِرْقان في البَدْوِ أدهى من وَباء السُلال والسرطان[2]
سرطانُ الصحراء حبسُ سحابٍ وانفلاتُ الصعالك الذؤبان
إنَّما العدل والشرائع أصداءٌ وظلٌّ لحقبةٍ ومكان
لا يجوز البعيرُ في غاربِ البحر، ولا البارجاتُ في الصحصحان
أيجبس اللصوصِ يُحمى «نفودٌ»؟ أم بتأنيب حاكمٍ ملسان
إنَّما السجنُ للصعاليك حصنٌ لَيقيهم غوائلَ الحدثان
في زواياه موئلٌ للكسالى وطعامٌ للشارد الجوعان
فهو في عَينهمْ خَلِيَّةُ إغراءٍ، وقرصُ الحلواء للذبّان

---

١ ثغر فارس هو الخليج العربي. والأرجواني هو البحر الاحمر وهما الحدّان الشرقي والغربي للمملكة السعودية. ٢ السرقان: السرقة. السلال: السلّ.

عدلُ عبد العزيز، ردَّ الى الصحراء، عدلَ الفاروقِ، بعد الأوان
مثله شدَّةً وميلًا الى الزهد، بسيط المعاش والديوان
لا بطيئاً ولا نؤوماً فلم تُشرق ذُكاءُ على تَريفٍ وان
يسبق الفجرَ للوضاءة فالركْعِ فأخذ الإبريق والفنجان
طيِّبَ النفس ناشطاً لمهمَّاتٍ يعاني في حَلِّها ما يعاني
فهو كالبحر حاملًا ألف عبءٍ ويُرى باسماً على الشطآن
صِنوه غاضباً يُناهض ظلماً صنوه في بشاشة الرضوان
يسحر القوم سامراً وعشيراً ويخافونه لدى الفوران
فيه من ثورة البراكين لكن ليس فيه أذيّةُ البركان
فهو كالنار، حين تلمح في الرعه، فتخلو من فحمةٍ ودُخان
خالصَ القول والسريرةِ، فوقَ المكر، فوقَ الذُحولِ والأضغان
وادعاً وارفَ الوقار حليماً واسطاً بين شدَّةٍ وليان
منشئاً وُلْدَهُ على خشية الله، وُخلقٍ كصفحة الهندواني
عالماً، أنَّه يُربِّي ملوكاً لغدٍ واسعٍ جليل الأماني
فِعْلَ ربِّ البستانِ قامَ على الغَرسِ، فأضلاعه عليه حوان
يَدْرأُ الطيرَ والسوائمَ عنه ويُنقِّي بَراعمَ الأغصان
نابذاً كلَّ شَوكةٍ تُثقِلُ الغصنَ وتؤذي، عند القطاف، الجاني
ساقياً هذه الغرائسَ من ماء نميرٍ جرى به منبعان

لمنبعِ الجود والبشاشةِ، وهو القطبُ في جمع كِلمة العربان

«منبعُ البأسِ والشجاعة» فالأخلاقُ فرعٌ وأصلها هذان

لا يسودُ الصحراءَ غيرُ سخيٍّ حسنِ الملتقى نديّ البَنان

لم تُغضِنْ جبينَهُ كثرةُ الضيف، وضيقُ العافي، وسقمُ العاني

ما قلوبُ الأنام إلّا طيورٌ حائماتٌ على ربيع الجنان

أنزِلوها على بساطٍ من الظلّ خصيبٍ مخضوضرٍ نَديان

تُخمِدُوا في الصدور فطرةَ شرٍّ هي أدنى لفطرة السرحان

قد تكُفُّ الأظفارَ بسمةُ ثغرٍ وتُفلُّ الأنيابُ بالإحسان

. . .

قال عبدُ العزيز يُوصي بنيهِ «من ملام العُذّال صونوا خواني»

ليس في القَذْعِ والتهكّمِ أنكى من أراجيف حانقٍ غرثان

« باقلًا » في الرضى يكون فإنْ يَغضَبْ، فويل الأسماع من «سحبان»[1]

يزرع البيدَ والحواضرَ هَجْواً ويُغالي في الكذب والزَيغان

قلّما تُشغَفُ المسامعُ بالمدح، وتهوى بَهارِجَ البهتان

ذاكَ أنّ الأنامَ من نسل حوّاءَ، وفيهم شيءٌ من الثعبان

يتَغاضونَ عن جمال ذُكاءٍ وهِباتٍ يُفيضها القمران

وحياةٍ تزفّها الشمسُ للأرضِ، حياةِ النبات والحيوان

هَمُّهم في الكسوف أو في خسوفٍ فمثارُ الفضول في الحِرْمان

---

١ باقل : رجل يضرب فيه المثل بالعيّ. وسحبان : هو الخطيب الأشهر المعروف بسحبان وائل .

قَلَّما تُشكَرُ المَنابعُ للفيضِ، ولكن تُذَمُّ للنقصان
«راقبوا فعلَ خازنٍ ووكيلٍ وأجيرٍ وخابزٍ عجّان»
«راقبوا ساسَةَ الخيولِ، وتدبيرَ الطواهي، ودُربَةَ القهرمان»
كُلُّ ما قصَّر النَواتيُّ فيه فوخيمُ العُقبى على الربّان
«واذكروا نكبةً أحاقَتْ بعبد الله عمّي، وكان ملءَ الآن»
طيِّبَ القلب والشمائل، رحبَ الكفِّ، أنشودةَ الحسام اليماني
هدمَتْ عرشَهُ حواشٍ لِئامٌ كُنَّ شرَّ الصدوع في البنيان
سوَّدوا صفحةَ الأميرِ بما رشُّوا عليها من قاتِمِ الألوان
إذ يسومون شعبه، فوق ذُلِّ الشحِّ، قولَ الخنى، وسوطَ الهوان
نَفَّروا من وَلائِهِ كلَّ حُرٍّ بين جنبيه للإباء معان
أُفلِتوا من رقابةٍ فغَدوا شُمْساً، بلا زاجرٍ ولا أرسان
ذاك أنَّ النقصَ المركَّبَ فيهم ساقهم للعُتُوِّ والطغيان
وهو نَقْصُ الهجينِ عِرقاً وخلقاً فهو كالنغلِ من نِتاج الأتان

«لؤمهم ألَّبَ السيوفَ عليه ورماه أضحيَّةَ القُربان»
واقتدوا بي شجاعةً وسماحاً انما البأسُ والندى أخوان
لا تقول الأجيالُ قصرُ سعودٍ ظلَّلَتْ جُدْرُهُ فؤادَ جبان

• • •

يا حفيدَ الأبطالِ، خيرَ سيوفِ العُربِ، من وائلٍ الى « عندنان »
خدرك الفذُّ لن يضمَّ جباناً   إنَّ كُنهَ الجذوعِ في الأفنان
لو أراد الخنوعَ منهم صبيٌّ   لَفَظَتْهُ نوافِذُ الجدران
من يُربِّي للمكرمات نخيلًا   لن يرى بينه حقيرَ الزؤان
أنت فَتَّحتَ سمعَهم منذ كانوا   بعدُ في نضرة الغصون اللدان
لحديث الأبطال من كلِّ عصرٍ   فاستطابوا مواردَ الشجعان
قَبَسوا عنك في العرين دروساً   ونَمَوا في منابت المُرَّان
عايشوها ملاجِماً تشرحُ الصدرَ لسيفٍ وصَعْدةٍ وحصان
همْهمُوا للقتال يومَ سِواهم   من فُروخِ القصور في الأحضان
أو نشاوى في غمرة الرقص، والقصف، ورشفِ الخمور والألحان
فتحارُ العيونُ فيهم، أَوُرَّاثٌ لِعرشٍ، أم صبيةٌ في حان
أم جوارٍ تُعَدُّ للبيع في سوق الملاهي ومسرح المُجَّان
أنتَ عبد العزيز عَلَّمتَ كيف الرقصُ، لكن في حَومةِ الميدان
رقصةَ الحربِ يرقصون، كذا النسرُ يُعِدُّ الأفراخَ للطيران
أنت لَقَّنتَهمْ بطولةَ أعوامٍ فأوجَزْتَها ببضعِ ثوان
« يقظةٌ في الوغى وجأشٌ صليبٌ   وسدادٌ في الكرِّ والجَوَلان
« وذيادٌ عن الكرامة والحقِّ، وبذلُ الأرواح للأوطان »
« واتّكالٌ من قبل ذاك على الله، فكلٌّ سوى المُهيمن فان »
إيهِ عبدَ العزيز لم تقصرِ الهمَّ على بيتكَ الصميمِ الداني
فأردْتَ الحجازَ والنجدَ شعباً   ناعماً بالرفاه والعمران

تنشد الخيرَ والرُقيَّ لقومٍ فطموا نفسَهُمْ عن العرفان
حصَّنوا تلكمُ العقولَ بأبراجٍ، من الجهل، صَلْبةِ الأركان
فهْي من شدَّة التعصُّب والعُقْمِ يُغشّي صفاءها ليلان
قد فتحتَ الحصونَ بالسيف لكن سوف تَصْلى نيرانَ حربٍ عوان
وهْي أدهى مما لقيتَ من الخصم، فصبراً يا فاتحَ الأذهان
إنَّما القولُ بالحضارة فيهم بدعةٌ دونها جِنايةُ زان
أبسيَّارةٍ تُبدَّلُ بُعرانا؟ فأين الوفاء للبعران
إنَّ هذا الحديد يجري، بلا خيلٍ، لَمِنْ صُنعِ معملِ الشيطان
كُلَّما أعجزَ البدائيَّ لغزٌ قال: إبليسُ أو مُلوكُ الجان
فكأنَّ الرجيمَ في خِيْلَةِ الدهماء رَبٌّ من طينةِ السودان[1]
شعرُهُ التفَّ كالتفاف الأفاعي يَتلاقى من فوقها قَرْنان
وله مِخْجَران، أو بِرْكَتا نارٍ، كجمرِ الأتّون تحتدمان
فوق أنفٍ كأنَّه جحْرُ نِمْسٍ أو وِجارُ الضِباع والذُؤْبان
كنُيوب التمساح أنيابُهُ الصُفْرُ، وسُمُّ الحيَّات في الأسنان
ولِسانٌ كظِلْفِ ثورٍ، له لونُ الدَياجي وكثَّةُ الأفعوان
يُحرِقُ النبتَ إنْ تَلَهَّثَ كِبريتاً، ويفني مَباسمَ الأقحوان
كالسواري رِجلاهُ، كالدَوح زنداهُ، جُذورَ الأهرامِ تقتلعان
أبدون الشيطان ينتظمُ الصوتُ الفَيافي وغائرَ القيعان

---

[1] خيلة الدهماء: مخيلة الطغام.

أُتراهُمْ يُغرُونَهُ بالضحايا   من جِداءٍ ومن كِباشٍ سِمانِ
كيف عبد العزيز يصطنع البَرقَ؟ أما خافَ نقمةَ الديَّانِ
يقطع الدوَّ مثلما يلمحُ الفكرُ، وفي مثل رَدَّةِ الأجفانِ
بِدْعَةٌ مثلها مقالةُ مَزّاحٍ يقول: الغبراءُ في دَوَرانِ
كيفَ دارتْ هذي البسيطةُ؟ لو دارَتْ لكَبَّتْ هوادِجَ الأظعانِ
ولَراحَ الخزّافُ يبكي على الفخَّار في عقب مأتمِ الكيزانِ

. . .

أصعبُ الفتح فتحُ ذِهنٍ صَفيقٍ   كَفَّنتهُ الأرماسُ بالأدرانِ
وتُسَمَّى الصَوابَ وهْيَ ضَلالٌ   أورثَتْهُ القطعانُ للقطعانِ
سَمَّكَتْها العصورُ وهْماً على وَهْمٍ، فُلانٌ أفضى به لِفُلانِ
التقاليدُ تأسرُ الناسَ حتى   لتصير الدماءَ في الشريانِ
فهِيَ العقلُ لا مَحَطّ لعقلٍ   غيرها في المُضَلَّلِ الغفلانِ
من دَعاهُ لنقدها رام منه   أن يُزيلَ البُحرانَ بالبُحرانِ

. . .

إنَّ داءَ التَعَصُّبِ المُرِّ شَرٌّ   قد يُضاهي عبادةَ الأوثانِ

١ بلغ الجهل والتعصب من المقاومين الحركة الإصلاحية أن بعضهم كان يُباغت عامل المحطة اللاسلكية لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض. وكان بعضهم يعتقد ان التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد ان تذبح عنده ذبيحة يذكر عليها اسم الشيطان.

تَنيٌّ من يعبُدُ الجذعَ وهو الصاقِلُ الجـذع ، لاماً بالدهان

ـثنيٌّ من يعبُدُ الرأي أعمى فكأنْ لم تكُن له عينان

عنجهياً يظلُّ مُنغَلِقَ اللبِّ ، فـلا يهتدي الى ميزان[1]

أحصفُ النَّاسِ من يَشكُّ ولكن شكُّ بانٍ الى الحقيقـة ران

كالغزالي ، وكان كعبةَ فَهْمٍ راوَدَتْهُ في رَيبـهِ كفّتان[2]

حارَ فاستَشرَفَ اليقينَ ولم يَقْنَطْ ، ولا هدَّ عزمَه الضِدّان

واهتدى للصواب غبَّ صراعٍ واستطارتْ أضواؤه للعيان

أسخفُ الناسِ من يصدُّ جديداً هـائماً بالعتيق والأكفان

كُلٌّ من آثرَ الجمودَ فجانٍ يتعدّى مشيئـة الرحمن

ليس إلّا الرحمنُ يبقى على حالٍ ، فليس الجمـودُ في الأكوان

من تغاضى عن الرُقيِّ اختياراً فقد اختارَ ظلمـة العميان

وكذاكَ الخفّاشُ ، يجرحـهُ النورُ ، فيغشى حوالِكَ الغِيران[3]

أطلُبِ العلمَ ، كان في الصينِ ، أم في الغَربِ ، أم في جزائرِ اليابان[4]

وسواءٌ أتاكَ من مُوسَويٍّ أو حَنيفٍ ، أو جاء من نصراني

من ضِفاف « التامِيزِ » أو ضفَّةِ « الكَنْجِ » تأتّى ، أو معبدِ الرهبان

إنَّما العلمُ والرُقِيُّ مُشاعانِ ، شُيوعَ الهـواء للإنسان

فهو حَقٌّ لكلِّ من بَرَأَ اللهُ ، ورفَّتْ في صـدره رِئتان

أيُصَدُّ النسيمُ؟ من « حملايا » هَبَّ ، أو هَبَّ من رُبى لبنان

---

١ عنجهياً : متكبراً . ٢ انظر كتاب حجّة الاسلام للامام الفيلسوف ابي حامد الغزالي وعنوانه: المنقذ من الضلال . ٣ غِيران : مفردها الغار . ٤ إشارة الى الحديث : اطلبوا العلم ولو في الصين.

حاملاً للصدور عُمْراً جديداً سَكَبَتْهُ الذُرى على الريحان
ناشراً عَبقــةَ الأماليدِ في الأَرز، وعُمقَ الدهور في السِنْدِيان

. . .

في غدٍ تُفتحُ العقولُ علــى العصر، ويشدو بذكرك المِصران
يحمدون المَلْكَ الذي حَضَّر الصحراء رغم العُقــوق والعدوان
يتلاقى عليك، يا قِمَّةَ القطرين، في رفرف العــلى عَلَمان
سيِّدَ العُربِ والجزيرة، فلْيَنْعَمْ بأمنٍ في ظِلِّــك الحَرَمان

النسر يتوارى

لبولس سلامه

جَبلَ «الطائفِ» النَديِّ الحالمْ　　يا مجالَ المُعطَّراتِ النَّواسِمْ[1]
يا رِياضاً توشّحتْ سُندُسيّاً　　من أماليدَ في الصباحِ بَواسمْ
إتّئِدْ يا نَسيمُ فالنسرُ ساجٍ　　أَمَهيضُ الجناحِ أمْ هو جاثمْ
كنتَ أولى بذلك النسرِ لمّا　　كان بالذُرْوةِ العليَّةِ هائمْ
لِبساطِ اللألاءِ سُمرُ خوافيهِ،　　وللكرِّ والصراعِ القَوادمْ
أَعلى الهيناتِ أَطبقَ عينيهِ؟　　أم البالُ بالفتوحاتِ حالمْ
هَمَستْ ألسنُ المكارمِ أودى　　فأجاب السِماكُ بل هو نائمْ
لم يُمتَّعْ بمثلها ضجعةً كبرى،　　فقد ظلَّ في المجرَّةِ حائمْ
جابَ هذي الأجواءَ ستّينَ حولا　　وهوى اليومَ تحتَ غارِ العَظائمْ[2]
ماتَ! ما ماتَ منْ فمُ الدهرِ يَرويهِ،　　الى مسمعِ الحياةِ الدائمْ

---

١ توفي الملك عبد العزيز في الطائف ونقل جثمانه بالطائرة الى نجد حيث دفن في مقابر الرياض

٢ قد عمّر المغفور له الملك عبد العزيز نحواً من أربع وسبعين سنة ونظرنا في قولنا (ستين حولا) الى مدة كفاحه باعتبارها بدأت منذ البلوغ .

إن عبدَ العزيزِ والمجدَ صِنْوانِ ، وما يفصل الخلودُ التوائم

كلُّ يومٍ من عمرهِ حِقْبةٌ ملأى بمجدِ الفتوح أو بالمكارم

آنَ أن يَهْدأَ الحسام فيأوي لِديار الخلود حيث الأعاظم

خالِدُ ابنُ الوليدِ وابن زيادٍ[1] و « هنيبَعْل » اعربٌ وأعاجم

طَوِّقوا نَعشَهُ بسُمْرِ العوالي واقطعوا صمته ببيض الصوارم

وَضعوا في شمالِهِ صعدةَ الرمحِ ، وفي كفِّهِ اليمينْ القائمْ[2]

لو فعلتم لاخضوضرَ السيفُ من ذكرى ، فيا طالما سقاه الجماجم

جنبوا يومَهُ الدموعَ الدَّوامي فهْو يومٌ مُحجَّلٌ في المآتم

صيِّبِ الدمعِ كان مُبتَذلَ الحزن ، فما هكذا وداعُ الضراغم

شيّعوهُ بِمِدفَعٍ وهزيمٍ إنَّ في الأُسْدِ صبوةً للزمازم[3]

عطِّروا نعشَه بِرائحةِ الهيجاءِ ، يا طِيبَ فوحِها في الخياشم

بِصَهيل الخيولِ مُتَّصِلِ الأسجاع ، مُستتبِعِ الصدى والحماحم

لا بُكاءً بل افتِقاداً لِوَجهٍ لم يُشارِكْهُ في البهاء مُزاحِم

كلَّما سُدَّةُ البُطولة أقوتْ ذكرتْ هيبةَ الهصور الضُّبارم[4]

فجرى صيتُهُ العريضُ أريجاً وجرى قلبُها الكئيبُ مراحم

. . .

قَسَماً بالذي بَراكَ أبا « تُركي » خَبَتَ الضِياءُ فالجوُّ قاتم

١ المقصود بابن زياد : البطل طارق فاتح اسبانيا، وهنيبعل : هو القائد القرطجي المشهور . ٢ قائم السيف : هو مقبضه . ٣ الزمزمة : الصوت الذي يسمع من بعيد وله دويّ . ٤ الضبارم : الأسد .

كلُّ مصرٍ تَوَشّحَ الضادَ حلْياً بَاتَ كالرمسِ يومَ فقدكَ واجم

وتلاقَتْ عليك سُودُ قِلاسٍ[1] للنصارى، وناصعاتُ العمائم

ذاكَ شأنُ الأطواد إمَّا تناهتْ رِفعَةً عانقَتْ شتيتَ الغمائم

فاجِعُ الرزءِ فيك جازَ بلاداً وتُخوماً معهودةً ومَراسم

إن تكُنْ عاهِلَ الحجاز ونجدٍ فَسَناكَ اللمَّاحُ يطوي المعالم

المدى يحصرُ الولايةَ لكن شَرعةُ الحبِّ فوق تلك المزاعم

ليس مُلكُ العظيم ما عرفَ التأريخُ من ثروةٍ، وسلطان حاكم

مُلكُه حيثما أحسَّتْ قلوبٌ وتصبَّى مجدُ الكريم الأكارم

لم يَحُدِّ المكانُ من «خالدٍ» ذكراً، ولا استأثرَ الزمانُ بحاتم[2]

صدٌّ إمَّا استطَعتَ لألأَ صبحٍ أو رفيفَ الشذا، وخفقَ النسائم

إنَّ للخالدينَ في كلِّ أرضٍ وزمانٍ رعيَّةً وعوالِم

ولَهُمْ في الوجود، من مشرقِ الشمسِ الى مغرب الضياءِ، عواصم

فكريمُ النُضارِ معدنهُ الأصلُ، فلا يُسألونَ : أينَ المناجم

أنت عبد العزيز موطنكَ الأفقُ، كما الجوُّ موطنٌ للقشاعم

قد تَجاهى لبنانُ فيك ومصرٌ ودِمَشقٌ كما تَجاهى الحضارم[3]

نَشَدَتْ قبلك العُروبةُ ظِلّاً تُتَّقى فيه لافحات السمائم

ساعداً يجمع الشجاعةَ والجودَ، ورأياً كالسيف أغلَبَ حاسم

أنفَدَتْ صبرها ارتقاباً لِحُرٍّ يُجتلى فيه عزُّها المتقادم

---

١ القلاس : مفردها قلنسوة وهي نوع من ملابس الرأس عند رجال الدين في المسيحيين . ٢ المقصود خالد بن الوليد وحاتم طي . ٣ الحضارم : في النسبة الى حضرموت .

فيكون اختلاجةَ البعث فيها والأساسَ الذي عليه الدعائم
باطِلًا راحتِ اليتيمـةُ تبغي للعيون المُقَرَّحات بلاسِم
تَنشدُ الواحـةَ الخصيبةَ، لا تَلْقى سوى القفر والصعيدِ النـاقِم
لم تُصادِفْ سوى بَريقِ سرابٍ رِيَبٌ خَلْفَ وَهْجِهِ وطلاسم
جئتَ فالعربُ حول عرشك أكبادٌ، كما طوّق الغـديرَ الحمائم
السيوف التي تألّفتَ باتَتْ حَدِبَاتٍ لِدَعْمِهِ وقوائم
والقلوب التي صَبَوْتَ اليهـا من بعيدٍ رنَتْ اليـه حَوائم
جئتَ والعُرب مُخلِقـونَ شباباً وأماناً وأُلْفَـةً وعـزائم
فرأَوا فيـك مُنقذاً يفرش الخـيرَ ويَستنبتُ الزمانَ الآزم
كنتَ تاجَ الصحراء في نصفِ قرنٍ هو أنشودةُ الربيع الباسم
حيثما أنت ليس للبؤس طيفٌ فعِيالٌ على نَداكَ المواسم
حيثما كنتَ ما خلا رمضاناً تَكْرَهُ الشمسُ أن ترى وجه صائم
دوحةَ الخيرِ كنتَ ما أَمسَكَتْ ظِلًّا، ولا خَيَّبَتْ رَجاءَ الطاعم
تهرع الطيرُ عاكفاتٍ عليها كُلَّما ارْبَدَّ في العَشِيّاتِ غائم

. . .

كَفِّنُوا سَيِّدَ الجزيرة بالوردِ، بآسِ الـرُبى وعِطر الكَمائم
بوِشاح الثلوج من شُمِّ لبنانَ وأنْدائه النِطـافِ البواسم

١ النطاف : مفردها نطفة وهي الماء الصافي .

بذؤابات أرزهِ وابتـلالٍ من عَشاياه في الحواشي النواعِم
واحمِلُوه من الحجاز الى نجدَ، فلِلوكْرِ قُدْسُهُ في المحارم
يَلمُسُ المرءُ في الـتراب، ولو مَيْتاً، ترابِ الأوطان قلباً راحم
وادْفِنُوهُ في رَبْوةٍ تُنبِتُ المُرَّانَ صُلْباً، وتَستعيدُ اللهاذم
فوقها يَخفُقُ العَرارُ على الرَّمْسِ فتَشذى بالهيناتِ النواسم

. . .

جِيءَ بالنسر طائراً بل مُطاراً في أثيرٍ مغرورقِ الجفن جاحِم
عَهِدَ النسرَ يبهرُ الشمسَ لحظاً ويُقاوي كواسراً ويُصادم
مـا لَهُ اليومَ مُدلِجاً، سادِرَ العينين، مُحلَوْلِكَ الأسارير جاهم
كاليَمانيِّ مُغمدَ الحـدِّ يَغفو بِقِرابٍ من مَجدِهِ المُتراكِم
قد تَرَدَّى العلياءَ مَيْتاً وحَيّاً غابَ جسماً ورُوحُه آيَ سالم
عادَ يا نجدُ مَن حِماكَ هصوراً يرهبُ الأُسْدُ زأرَهُ والأراقم
هيكلًا سامقاً وزنداً جديلًا تحتَ فرعٍ كالليل حَرّان فاحِم
فتَشوَّفْ الى الغضنفر وانظُرْ مَفرِقاً شابَ من عجاج الملاحم
وتَهَيَّبْ ذاكَ العظيمَ المُسجَّى واخفِضِ الطَرْفَ إنَّما الليث آجم
نَكِّسوا لاغترابِـهِ كلَّ بَنْدٍ سَوِّمُوا الخيلَ والنِياقَ الرواسم
أوطِئوها الـترابَ جساً فلا تشتَدُّ فيه سَنابِكٌ ومَنـاسم
فتسير الجيادُ نُكْسَ النواصي كاسِفاتِ الوُجوه رُبداً سَواهِم

غيرَ مَشدُودةِ الأَعِنَّةِ والأَعرافِ، مَرخيَّةَ الشَوى والشَكائم[1]
أَطرِقوا حول نَعشِ من كان يحميكم، إذا شوَّه المروءَة آثِم
من حَباكُم عزَّ المقام وكُنتم قبله للدخيل بعضَ المغانم
أَو رقيقاً يُسامُ خسفاً وذُلّاً كلّما فُوِّقَت سِهامُ المظالم[2]
ويُساوِيكُمُ الهَوانُ، كما ساوى قُساةُ الرعيان بين السَوائم
سِلَعاً تحسبون يوم نفيرٍ فيَسوقونكم لِدفعِ المَغارم
فتكونون عندهم شِبهَ أعدادٍ جرَت فوقها يَراعُ الراقم
لا نظامٌ لكم ولا حُرمَةٌ تُرعى، تعيشون رُحَّلاً أو شراذم
عَيشكم عابسٌ، وأيّامكم سودٌ، وأفعالكم كِبارُ الجرائم
أطرقوا ساعةً لذكر عظيمٍ لا رَهيب اللقا ولا مُتعاظم
قدْوةً كان بينكم في السجايا ولقد كان دونكم في المَناعم

...

وَدِّعوا ذلك الجبينَ بأبصارٍ عن الحبِّ والشجون تَراجم
فالبطولات بعده ربّما شُرِّدنَ دهراً مُوَلَّهاتٍ أَيائم[3]
إحمِلُوهُ على الرِقابِ الى الرمس وردُّوا أكتافَكم والمعاصِمَ
سلِّموا كَنْزَكم الى كفِّ «رِضوانَ» فبرعى عهدَ المليك القادم[4]
ضُوعِفَتْ ثروةُ الخلدِ بمرآه، وقامَتْ أعراسُهُ والولائم

---

١ الأعراف مفردها العرف وهو شعر رقبة الفرس. والشوى: الأطراف. ٢ فوّق السهم: سدّده. ٣ أيائم: أرامل. ٤ حارس الجنة.

عندما تعظمُ المَناحةُ في الأرضِ، فَوجهُ السماء عرس قائم
أُمَّةً وَحْــدَهُ يُعَدُّ أبو «تركي» هو الماسُ والمــلوكُ دَراهم
رجلٌ حــوله تجَمَّعَ تأريخٌ، كما ألَّف الجمانَ النــاظم

وقال الشيخ احمد بن الامير محمد بن عيسى بن علي بن خليفة في رثاء الملك عبد العزيز من قصيدة :

ذا قبر ضرغام الجزيرة فاقرأوا سيراً له كتبت بحد سنانه
هذا الذي نشر الوئـــام وهللت
من فضله الدنيا ومن احسانـه
ان تسألوني يا رفاق فانـه قد مات بعد السبق في ميدانه
ان الطهارة غسّلته وانهـا لفته بعد الموت في اكفانه
وسرت به نحو الخلود لعالم ما دبت الأحقاد في انسانـه
سارت به والطهر ملء ركابه وشذا الفخار يفوح من اردانه
بكت المكارم يوم شيع نعشه وتهاوت العليا على جثمانـه
نوحوا على بطل الجزيرة واندبوا
نسراً رماه البين عن طيرانه
مات الامام وكيف اصبح نازحـاً
عن عرشه السامي وعن تيجانه
عبد العزيز فتى الملاحم والوغى من فاز بالاكليل عن اقرانـه
هو ملهم الصحراء والبطل الذي تكبو جياد الخيل في ميدانه
هذي البوادي قد صحت من نومها
من صوته الداعي ومن ايمـانه

احيا تراث المسلمين بعهده واقام ركن المجد في سلطان

واعاد بالسيف الصقيل لقومه ما تعجز الابطال عن اتيانه

لم يحتفل بحضارة الغرب التي

قد سار منها الغرب في طغيانه

كانت عقيدته ومنهج حكمه ما قاله الرحمن في قرآنه

قال العوني يعتذر من الامام عبد الرحمن الفيصل ويمدح ابنه عبد العزيز من قصيدة :

لولا الخمال وما تصور به اللوم
ما كان صار للعفو سابل سال
تزينو عندك وخلون مذموم
زلفون بالحفر ودهم ذبو الجـال
انا لكم عبد مليك ومـاسوم
الا ولا قلبي نوافيكم ابدال
لا شك طبـع العبد لو طاب ماشوم
لا بد به بوقه ولو صار رجال
يا شيخ لا تسمع بنا قول مذموم
اعذر وسامح وأنت للخير فعال
اما سمحت وقلت ما فات مذموم
اللي بخاطر **ليث** الأبطال ما زال
عبد العزيز احجاب نجد عن الروم
ابنك نجيبك هدم صولات من صال
عز الرفيق وذل من ينقل الزوم
لطام هامات العدا متلف المـال

حزنٍ الى منته شهر وادرج الحوم
عقبان نجد عن مراميه تنجال
سبع خروم يقصم الضلع ملحوم
حراب ضراب حمولٍ وزعال
ريف على العانين نصر لمظلوم
سو على المسوين قصاف الآجال
وأنا عشير مزينـــة كل مضوم
من نسل وايل من عزيزٍ من الانزال

ويقول العبيوي جار الله بن مصيول من عبيات مطير يمدح عبد العزيز وقد املاها علي وعمري لم يتجاوز الثانية عشر سنة وذلك في سنة ١٣٥٠ هجرية في مدينة الجمعه

بديت ذكر الله على كل جابه مبدٍ ذكره عظيم الشان
قريب مجيب بالدجي يسمع الندا المانع المعطي هو المنان
ولكني كاسب لي نصيحه يقولون الشيبان للغران
الى منك اوردت ارد العدو الجيده
والى زبنت فازبن على الضلعان
وأنا زبنتك يا شلابل تركي يوم كل حط له مزبان
طير الى قنصت يقنصك وطير الى قنصته هدان
ولان ينقص بالحمره وام سالم وأبو حقب ومسح الريضان
زينت حرٍ مخلبه ينثر الدما الحر الأشقر ماكره حوزان
من لابة من شغاميم وايل اعنوز تسلل من ربيعه وعدنان
ماكر حرار تبعهم يرمي العشا وتخطر نوادرهم على الأذهان
يا منجي العودة الى قل جريها الى من اللحي نشبت على الامتان
الى من هاذ ولا اقبلو وذا ولا اوجهو
ترمي العشا لمعكف الجنحان
مطراص بالود وز يزوم سربه وعز الضعيف ومنوة الجوعان

عسى الذي رفعكم من فوق العرب
انه ينجيكم من النيران
انه ينزلكم منازل طوبى الى مسمات ذواتا افنان
اشجارها وانهارها واثمارهـا فضلها الولي في سورة الرحمن
غذيت بين الفقر والدين ضيعه والكيس خالية من الديوان
ولو المرد الفقر ان كان اجاهده
مار البلا اوف فلان واوف فلان
اذا جبت لي كسابة من ديره جلس لها سبعة عشر ديان
وصلاة ربي عد ما ذعذع الصبا واعداد مـــا ينبت من العيدان
على بـــني الامـّـة محمـــد هو خيرو صفوة ولد عدنـــان

وقال ابراهيم بن جعيثن من شعراء سدير الشعبيين يمــــدح الملك عبد العزيز :

باالله يا الهجن عوجو روسها واصحو لمس احبالها بجلوسها
ردو لي قاب النضا بارسانها وصملانها تبتل عقب ايوسها
ولكم قرار ولهن ما يرما لهن حتى تطيب انفوسكم وانفوسها
مهلاً هديتوياد لي حاجة في حالي الي زايد لاسوسها
ادنيت كتاب وحبر دارج يهيا لمن اجرى القلم بطروسها
الى طويت الخط سمو واركبوا تغا نمويا غانمين اجلوسهـا
مدو عسى فال السعادة فالكم معكم خذوني للديار اقوسها
علي اوردهن قراح صافي هداج تيها ما بغيت ارسوسها
انزل على دارٍ وكار عامر ما قربت فيه الوشاة بنجوسها
مثل الفرات او روضة ماسومه جوني بتوكيد العلوم عسوسها
اعط الامام ابن الامام خريدة عذب نباها لــين ملموسها
فيها سلام عد مانسل آدم ارزاقها وانفاسها وانفوسها
او عد ما فوق الوطامن ساكن مع ما تحركه الرياح بنوسها
يهدا لبو تركي وحيد زمانه كما يزف الى الملوك عروسها
ليث جسور على الحروب مجرب مع ذا لقالات الرجال يسوسها
فيه الديانة والشجاعة والندا واعداه يخفي ذكرها وحسوسها

بالدين قـام ورد كل معطل   اهل البطالة ردها بعكوسها
شيذ منار الدين وامن سبله   بالسيف واللي عامر نادوسها
جنده هل التوحيد هذا فعلهم   **يرمون** روس أهل البدع بقبوسها
ان حارة افكار الرجال لقيته   حاوى معاني ماحوى قاموسها
الى بغيت العلم تلقا عالم   ينبيك عن نص الحديث ادروسها
الى بغيت الحكم تلقا حاكم   فاق الرجال افكارها وهجوسها
الى بغيت الجود تلقا حاتم   يعطي الديار ابارها واغروسها
ان ثارة ألهيجا فهو مقدامها   وهو بواليها وهو قابوسها
يخوض المنايا ما يهاب اورودة   لو شاف بوجيه الرجال عبوسها
من عادته يرخي حبال جواده   على الجموع الى احتكم كردوسها
سهاب نهاب الحلال وغيرذا   روس العدا وصط العجاج يدوسها
كل الملوك اللي تعد افعالها   ظواري وايمامنا بيهوسها
اهل السياسة والرياسة كلهم   حصن وصار ايمامنا فاغوسها
كل الرجال مثل العصى لاهل النضا
وايمامنا بالفعل هو دبوسها
كل الرجال اللي تشاف زواهر   وايمامنا فوق النجوم شموسها
دانت له ارقاب الرجال وسلمت   اسادها وفهودها وبلوسها
جت في هواه اذيابها واثعالها   وتركها ومشيعة كبوسها
عنده رواة للحديث ولابه   يوم الوغى زين الشهر ملبوسها
اعني اهل السنة واخص ايمامنا   حاشاه عن طرق الردا وادنوسها

●

شكيت لله ثم له من حالي ظيم الليالي كاسر ناموسها
ذا قول مجهود الزمان وعاجز عن ما ينوب الراحلة وفلوسها
عساه يرفا زلتي ويسامح لاشاف من ظيم الزمان اتعوسها
لازال في حفظ من الله وافر ولا يشوف من الليالي ايبوسها
ازكا صلاتي والسلام لطاها
ما قيل باالله يا اهل الهجن عوجو روسها

وقال عبدالله بن علي التميمي في جلالة الملك المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن :

يقول من قلبه بدا فيه خله الى دكر من كل شعبه لجوله
عبد العزيز اللي حوا المجد كله اقول وشيوخ القبايل تقوله
كمن ضديد نزحه عن محله في كنة الجوزا تطارد خيوله
يوم السنين العسرة المشفحلة واويل من بالقيظ تبرك ذلوله
الله من قرم اعظامه تشله طاحت اطبوق بالصحاري انعوله
كن المشوك مزنة مستهله لا لاح بارقها هل البوش جوله
المعتدى سور الجزيرة يدله باصله لو ذونه ثلاثين دوله
طرق المراجل والمفاخر زهن له ينطق بحرف الضاد ما ترجموله
حدب السيوف المرهفة حنين له من هيبته روس العرب سلموله
فدا بنفسه ما رضي بالمذله عدوان جده من فعوله صفوله

وقال عبدالله اللويحان يمدح عبد العزيز وذلك بمناسبة سفرته الى مصر ١٣٦٥ وقد وصل جلالته السويس في ٧ صفر ١٣٦٥ واقام في مصر ١٤ يوماً وقـــد رحب الشاعر بجلالته عنـد قدومه من مصر

الا يا مرحبا باللي لفانا من بعيد الدار
على يخت مـع الغبه مواريـده مصاديره
على يخت مع الغبه يعوم بلجة الابحار
توجه من سواحل مصر فوقه طيب السيره
دخل عبد العزيز مصر زاد النور بالانوار
ثمان ايام واربع والفرح تضرب مزاميره
ملكنا عزنا هو مزبن الاجى وعز الجار
طويل العمر مثل الغيث كل طايله خيره
الى حارت مشاوير العرب ردوله الاشوار
تذل له الصعاب بدبرة الخالق وتيسيره
يغشم القالة العليا ولا ينشد عن المضهار
بحزم وعزم لين الدرب تشمخ له مضاهيره
يدير الناس بأفكاره وهو بالفكر ما يندار
بنى له قصر مجد تاصل الجوزا مقاصيره

صلاة ربي على المختار ما يطر امطار
على سيد الجميع الذي ظهر هديه وتفسيره

كانت الزيارة التي اشار اليها الشاعر الشعبي قد تمت بين مظاهر المجد والعظمة ، فقد حمل اليخت الملكي المصري الزائر الكبير وحاشيته من جدة الى السويس ، وحقاً فقد كانت الأربعة عشر يوماً التي قضاها ابن سعود في مصر اياماً احاطه الشعب المصري فيها بقلبه ، فكان الناس يزدحمون في الطرقات التي يسير فيها موكبه ، وكثيرا ما تطلعوا اليه من ارصفة الطرق ليروا صقر الجزيرة ، فلقد كان الحماس عميقاً وبالغاً ، ولم ينقل عنه انه خطب ابان زيارته ، ولم يعقد مؤتمراً صحفياً ، والأرجح انه صمم على ان لا يسمح او يشجع أي اتجاه يجعل من هذه الزيارة الرسمية مجالاً للدعاية اياً كان نوعها كأني به يقول : الحقائق تكفي عن الدعايات .

كانت الولائم والدعوات تأتي بعضها إثر البعض ، وكانت الزيارات مستمرة الى عجائب مصر المختلفة : الى القناطر الخيرية الى الاهرامات الى الجامعة التي لم يسمح للطالبات بحضور حفلتها ، فلم يظهرن في صفوف العرض بملابسهن الرياضية ، ثم الجامع الأزهر ، ومعاصر الزيوت في المحلة الكبرى ، ومستشفى المؤاساة بالاسكندرية . ورغم ما لقيه من الحفاوة البالغة والتقدير في مصر ، ورغم شكره ومقابلة الأكرام بمثله ، فانه كان مسروراً لرجوعه الى بلاد العرب حيث تمكن أن يعود الى مهبط الوحي والبلاد المقدسة وحياة الهوادة والبساطة في قصره وبلاده .

وكان قد أبحر مرة الى قناة السويس في مدمرة امريكية وقابل

الرئيس روزفلت على ظهر الطراد « اوغستا » في البحيرات المرة المقابلة لمدينة الاسماعيلية من الشمال ، وقد أعجب الرئيس بصقر الجزيرة ايما اعجاب . ومن هناك سافر براً الى الفيوم ماراً بالقاهرة دون ان يتوقف فيها ، اذ كانت زيارته لمصر غير رسمية ليقابل المستر تشرشل وزملاءه في حفلة عشاء أقيمت على ساحل بحيرة قارون . كانت هذه زيارة اعمال محض لكبار رجال الحرب الذين اعجبوا بعبد العزيز الذي نفض عن بلاده مخازي التبعية ، وجعل امته من بين الامم حرة يحف بها المجد ، فهذا هو أسد الصحراء الذي أصبح عند الشرق والغرب رجل الساعة في بلاد العرب والذي ثبت لديهم انه منصور لا يقهره الا الأجل المحتوم .

وقال عبد الرحمن بن معيتق من الشملان السلقا عنزه في عبد العزيز :

شيخ العرب ما حده الجدي لسهيل
عبـــد العـــزيز الـــلي مضى بالفعايـــل
الصارم المهدي على دين جبريل
الحاكم المأمون وافي الخصايل
شمس النهار ووصفه البدر باليل
بجيـــله وحيلاته ورانا ايحايـــل
ستر العذارا لابسات الخلاخيل
هاوي الخواصر حاويات الجدايل
حر وطلعه من ورى الشط والنيل
يغوص موجات البحر ما يسايل
نجد حموها ما عليهم مداخيل
بسيوف تقدى اللي عن الدرب عايل

(١) انظر القصيدة كاملة في كنز الأنساب للمؤلف .

عبد العزيز وما ادراك ما عبد العزيز ، عبد العزيز الذي اقض مضجع الأتراك اليك ابيات الملحمة الرياضية :

اوجس الترك من سريع ارتقائه فأسر السلطان خنق رجائه
هال عبد الحميد ان سراة العرب تدعو لنبذه وجلائه
كل قطر لهم عدو مبين أو صديق اللدود من اعدائه
ويقولون ظالم انتن البسفور من غدره ومن اسوائه
يومه ملؤه الجواسيس والغدار والليل مرقص لنسائه
ياد شاهِمْ وَجق يشا غمغمات سئمتها النفوس من جرائه
فاذا يكره الابي عليها فلقد تنتهي الى اغمائه
من لجين الفرات من حلب الشهباء حتى العقيق من صحرائه
من غضون أخت الزمرد في الأبرز لروض الرشيد في زورائه
كان بالأمس مشرق العرب وهاجاً وعرش النبي في خلفائه
وبهم الحكم للخواقين لولا نهج فرق تسُد على غوغائه
طالما سخر التلاوة زنديق وروح الشيطان ملء كسائه
من يتاجر بدينه يسخط الله ويعصي الرحمن في انبيائه

---

١ ياد شاهم جق يشا معناها بلسان الترك فليعش السلطان .
العقيق في صميم الجزيرة العربية نورا اخت الملك عبد العزيز

وتنادت صيد العروبة تبغي يعربياً تسير تحت لوائه
اروعاً بالحسام يحمي حماها حاتمياً يلفها بردائه
فرأى الترك في الأمير هلالاً واثلياً تشاءموا بضيائه
يالنور يصيح والسيف قان مصلت يلهب الثرى بصلائه
بالنورا يكنى وبأبي تركي واسد السرى وراء اكتنائه
مثل عبد العزيز حق له الفخر فمجد الحسام في آبائه
فيصل جده العظيم وتركي وكليب ووايل من ورائه
شرد الترك في القفار معيزا اعمل السبع نابه بجدائه
بعضهم عاد كاسف الوجه نضوا يستجير الأمير في ايوائه
عرفوه في الحرب صنو الرواسي لا سبيل لأجدل في ارتقائه
ورأوه في السلم روضا جنيا تطمئن العفاة في آلائه

نعم وبعد ، اراني اترنح وابتسم وانا اعدد فضائل هـــذا الرجل العبقري ، وارجع بك مرة اخرى الى استتباب الأمن : كان الحجاج قبل ولايته يسافرون الى بيت الله ومعهم أكفانهم وقـد كتبوا وصاياهم ويوم ذاك كان حرس المحمل مزوداً بالأسلحة والبنادق ثم لا يجدي ذلك شيئاً ، ثم لا يكاد الحاج يصل الى مهبط الوحي ويمر بين تلك الجبال حتى تنهال عليه الطلقات من الرصاص من قطـــاع الطريق وقد سلبوا الحجاج أموالاً وحلياً وأمتعة ورواحل ، ومن قاوم من الحجاج ذبح ، ثم لا تحرك الحكومة العثمانية ولا نوابها شعرة ، وقد أشار الى ذلك شاعر العروبة شوقي يوم كان الحجاز خاضعـاً لحكمهـم ، وكان الوالي اذ ذاك عون الرفيق ، وقد ارسلها مستصرخاً الى السلطان عبد الحميد ١٤ ابريل سنة ١٩٠٤ :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها في مكة الامم
اهين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... ان انت لم تنتقـم فالله منتقم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها ام لك العلم!
مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله انت السيد الحـكم
أفي الضحى وعيون الجند ناظرة ... تسبي النساء ويؤذى الجند والحشم
ويسفك الدم في ارض مقدسة ... وتستباح بها الاعراض والحرم
يد الشريف على أيدي الولاة علت ... ونعله دون ركن البيت تستلم

نيرون[1] ان قيس في باب الطغاة به ... مبالغ فيـــه والحجاج متهم
أدبه ادب امير المؤمنين فمـــا ... بين البغاة وبين المصطفى رحم
ابن الرسول فتى فيـه شمائـله ... وفيـه نخوتـه والعهـد والشمم
الحج ركن من الاسلام نكبره ... واليوم يوشك هذا الركن ينهدم
وخان عون الرفيق العهد في بلد ... منه العهود اتت للناس والذمم
قد سال بالدم من ذبح ومن بشر ... واحمرّ فيه الحمى والاشهر الحرم
وفزعت في الخدور الساعيات له ... الداعيات وقـرب الله مغتنم
موه على الناس او غالطهم عبثا ... فليس تكتمهم ما ليس ينكتم
كفى الجزيرة ما جروا لها سفهاً ... وما يحاول من أطرافها العجم

أليس من الحق ان تفخر العروبة بهذا الملك العربي النبيل الذي صنع تاريخ الجزيرة ، وتخطى السبعين محتفظاً بكرامته وعروبته ودينه ، ولم يكن غافلاً أبداً عن تطور العصر خارج بلاده او عن تطور الوعي داخل هذا الملك ، وكان يود أن لا يفارق الحياة الا وهو واثق كل الوثوق على ان اولاده قد قبضوا على الصولجان بيد لا تهتز ، اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ...

ملّكت عبد العزيز هذه المملكة المترامية الاطراف وأرسى أساسها مكيناً على الصخر ، وأدى رسالته على صورة عجيبة ، واليك هـذه القصة التى تمثل العفو عند المقدرة والحلم :

---

(١) نيرون طاغية روماني قديم .

كان في البلاد شخص يدعى مجري القديحة بن الجدعان الروقي العتيبي وكان قد أخل بالامن فبعثت اليه أحد الدوائر جنداً للقبض عليه . فما كان منه الا ان أضاف الى الجريمة جريمة أخرى حيث هدد بالسلاح وقتل احد الجنود وعندما علم عبد العزيز غضب الغضبة الوائلية فبعث قوة هائلة وفي طرفة عين احضر مجري وولده وكان الناس يتساءلون ماذا سيفعل عبد العزيز بهذا الجاني ، فلما احضر لدى عبد العزيز أقر بالذنب وقال ان الذنب يخرس اللسان ولم يبق الا عفوك او انتقامك حيث علمت الجريمة وانقطعت الحجة ، قال ذلك ولسان حاله يقول :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهمو　　ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

ويقول :

ذنبي اليك عظيم　　وانت اعظم منه

فسبق العفو الانتقام ، وما أشبه هذه الحادثة والعفو بهذه الابيات :

زعموا بان الباز علق مرة　　عصفور بر ساقه المقدور
فتعلق العصفور بين جناحه　　والباز منهمك عليه يطير
فاتى لسان الحال يخبر قائلا　　ها قد ظفرت وانني مأسور
مثلي لمثلك لا يفيد لجوعة　　ولئن أوكلت فانني محقور
فتبسم الباز المدل بنفسه　　طرباً واطلق ذلك العصفور

وقد ادكرتني هذه القصة ، قصة مالك بن طوق التغلبي صاحب الرحبة واحد الأشراف والفرسان الاجاود ، ولي مرة دمشق للمتوكل ، وكان ينادي على باب داره بالخضراء بعد المغرب « الافطار يرحمكم الله » ، والأبواب مفتحة يدخلها الناس . ووقع بينه وبين هارون الرشيد خلاف

على اثره مانع وتحصن وجمع الجيوش ، وطالت الوقائع بينه وبين عسكر الرشيد ، الى أن ظفر به وحمل الى الرشيد مكبلا ، فمكث في السجن عشرة أيام ثم أمر الرشيد باحضاره في جمع كبير من الكبراء وأرباب الدولة والصولة . فوقف ولم ينطق ببنت شفة . فعجب الرشيد من صمته وغاظه ذلك وامر بضرب عنقه وبسط النطع وجرد السيف ، فقال الوزير : يا مالك تكلم فان أمير المؤمنين يسمع كلامك .

فالتفت يمنة ويسرة وانشأ يقول :

اری الموت بين النطع والسيف كامناً
يلاحظني من حيث لا اتلفت
واكبر ظني انك اليوم قاتلي
وأي امرء مما قضى الله يفلت
يعز على الاوس بن تغلب وقفة
يسل علي السيف فيها ويصلت
واي امرء يدلي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما بي من خوف اموت وانني
لاعلم ان الموت شيء موقت
ولكن خوفي صبية قد تركتهم
واكبادهم من حسرة تتفتت
كأني اراهم حين أنعى اليهم
وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا

فان عشت عاشوا آمنين بغبطة
اذود الردى عنهم وإن مت موتوا
فكم قائل لا يبعد الله داره
وآخر جذلان يسر ويشمت

فبكى هارون الرشيد وقال : لقد سكت على همة وتكلمت عن حلم وحكمة ، وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية ، فارجع الى ولدك ولا تعاود ، فقال : سمعاً وطاعة .. هكذا العظماء ، وعبد العزيز منهم ، عبد العزيز بجهاده وبطولته الكبيرة بمهنته وبهمته ، الخالد الذكر بما قدم لقومه ووطنه من الخدمات الكبيرة والأعمال الجليلة . اذاب شعلة ذكائه في اضرام ما خمد من نفسية الرؤساء والملوك من معاصريه ، ولا زال حتى سكب بين يدي امته عصارة قلبه ومادة حياته . خاطر بحياته في الملمات ، لا يدنو الخوف والهلع من فؤاده ، ضالته المنشودة ان يرى امته تسحب على غيرها ذيل المجد والفخار ، وان يكون وطنه اسعد الاوطان يكره العتاة الظالمين ، ويعادي الطغمة المستبدين ، يثير حرباً على أبالسة الانسانيه ودعاة الهمجية ، لا يخشى في الحق لومة لائم ، ولا يرهب غير سلطان الضمير ، مواسي اليتيم ورفيق الضعيف ، حتى يأخذ حقه من القوي ، لا يعيث في الأرض فساداً ، ولا يستبد بالعقول المفكرة ولا يهزأ بحريات الافراد والشعوب ومقدرات الجماعات . لقد جعل الشريعة المطهرة دستوره الذي لا يتخطاه قيد انملة ، وهو يمسح على رأس اليتيم ويأخذ بيد الضعيف ، ويضرب على يد الظالم ، ورث هذه الصفات النبيلة عن آبائه واجداده العرب الذين اطرب لذكرهم وارتاح لسماع اخبارهم :

قومي هم العرب المحمي جارهم فلا رعى الله الا اوجه العرب
اعز عندي من سمعي ومن بصري ومن فؤادي ومن مالي ومن نشب
لهم علي حقوق مذ عرفتهمو فحسن شعري فيهم غير ذي كذب

ان عبد العزيز من النوابغ والافذاذ والعباقرة ، فيحسن ان يعرف قومه قدره ويشيدوا بذكره .

ان الغرب عرف قدر رجاله فعرف نفسه فنهض ، وجهلنا قدر رجالنا وعظمائنا ودبننا ، فأخشى ان نقعد مع القاعدين ، فيكون ذلك عاملاً قوياً في تأخرنا ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، أقول قولي هذا ، وأنا متفائل بالخير وأرجو لاخواني العرب والمسلمين كل رفعة وسمو ومجد وعلو :

اذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

الى هنا يقف القلم والكتابة . والتاريخ لا تدرك غايته . ولا تبلغ نهايته . وقد اعتذرنا للقراء أول الكتاب. ومن ركب مطية الاعتذار واجتنب خطيئة الاصرار فقد خرج من التبعات والله الموفق وهو نعم المولى ونعم النصير

يا من عليه اتكالي ومن اليه متابي
جد لي بعفوك عني اذا اخذت كتابي

انتهى الكتاب

فهرس